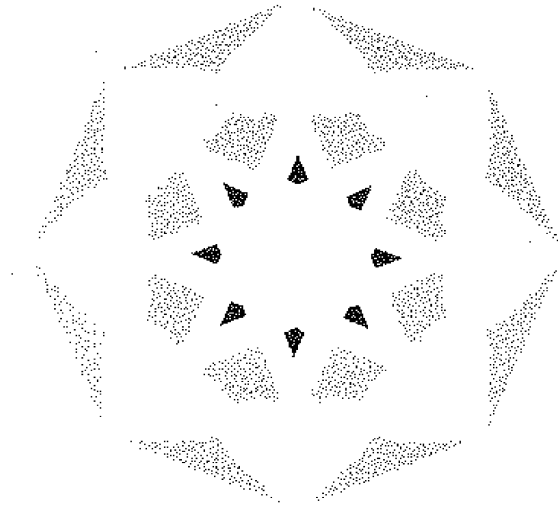


جَمَالُ الْبَنَاءِ

التَّعَدُّدِيَّةُ

فِي مُجْتَمَعِ إِسْلَامِيٍّ



دار الفكر الإسلامي

جمال البنا

التعددية في مجتمع إسلامي

دار الفكر الإسلامي

١٩٥ ش الجيش - ١١٢٧١ القاهرة - هاتف وفاكس: ٥٩٣٦٤٩٤

e.mail: gamal_albanna@infinity.com.eg

<http://www.islamicall.org>

جمال البنا

رئيس الاتحاد الإسلامي الدولي للعمل
مدير مؤسسة فوزية وجمال البنا
للتقافة والإعلام الإسلامي
رائد دعوة الأحياء الإسلامي

١٩٥ ش الجيش ١١٢٧١ - القاهرة - هاتف وفاكس ٥٩٣١٤٩٤
e.mail: gamal_albanna@infinity.com.eg
http://www.islamiecall.org



مُقَلَّمَةٌ

والحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله

تصور البعض أنه لما كان الإسلام دين التوحيد. فإن التوحيد ينسحب على كل شيء فيه بما في ذلك المجتمع ومظاهره وتجلياته من نظم وأوضاع وفنون وآداب وعادات وسلوك وأزياء الخ... فلا يوجد إلا نمط واحد في كل مجال من هذه المجالات وهو ما يضع للمجتمع الإسلامي في قالب واحد لا يتغير ولا يتطور ولا يتعدد .

وقد يُذكر في هذا الصدد "الوسطية" التي ينادى بها بعض المفكرين باعتبارها الموقف المختار للمجتمع الإسلامي تجاه التيارات المتعارضة يميناً ويساراً، شرقاً وغرباً، وهو تكييف سليم، وقد نص عليه القرآن. فلم يقل القرآن "أمة التوحيد" ولكنه قال «وكذلك جعلناكم أمة وسطاً». ولكن هذا نفسه لا ينفي التعددية، بل هو يثبتها لأن الوسطية تفترض وجود الإفراط والتفريط. التحلل والتزمت. الإسراف والتقتير السخ... ولا يمكن تصور وسطية حيوية بدون تعددية، وإلا تصبح هي الوسطية الرياضية التي تعنى التوسط بين نقطتين أو أنها تتجمد في قالب واحد وتأخذ طابعاً ثبوته، وهو ما يتنافى مع حيوية ودينامية الإسلام .

ويرى هذا البحث أن التوحيد في الإسلام إنما أريد به الله تعالى وحده، وأن سحب هذه الصفة (الواحدية) على غيره أمر لا يجوز، بل إنه قد يصبح شكلاً من أشكال الشرك. لأن الله تعالى قد تفرد بهذه الصفة، واضفائها على غيره شرك به. فتوحيد الله يستتبع تلقائياً التعددية فيما عداه .

ونحن في استخدامنا لهذه الطريقة إنما نتبع الأسلوب الفريد الذي صاغه الإسلام في إثبات الوجوب بنفى ما عداه. والشاهد الأعظم على هذا هو "لا إله إلا الله" فهذا يثبت الإسلام وجود الله في الوقت نفسه الذي ينفي ما عداه ولو أنه قال "الله موجود" هذه الصيغة وإن أثبتت وجود الله، ولكنها لا تتفى ضرورة ما عداه - أى أن يكون له أنداداً - في حين أن "لا إله إلا الله" تثبت الله وتتفى ما عداه .

ومن هنا فإن لقب "دولة التوحيد" الذي يرسله البعض فى اعتراض وفخر ليس وصفاً سليماً من ناحيته، فالإسلام ليس دولة، وإنما هو (١) أمة، وهذه الأمة تأخذ بالتعددية لا بالواحدية كما لا يمكن أن يقال "دولة الفضيلة" لأن نصيب الدولة فى إقامة الفضيلة أو تعزيزها نأفء، بل قد يسودى تدخل الدولة فى هذا المجال إلى المساس به. والتعبير الصحيح هو "أمة العدل" لأن الإسلام بالنسبة للتجمع البشرى "أمة" ولأن طابعه الرئيسى فى القيم الاجتماعية هو العدل .

وقد وضع الإسلام للمجتمع البشرى كيفية أوردھا القرآن الكريم تقوم على تفاعل ركائز أو قوى. فهناك هداية الأنبياء التى تعين الإنسان على سلوك الطريق المستقيم، وهناك غواية الشياطين التى تلقى به فى لجج الشهوات والشُرور، وهناك الإنسان نفسه الذى يملك بما غرس الله فيه من عقل وفطرة أن يتجاوب مع هداية الأنبياء، كما يمكن - فى حالات أخرى -

(١) ستكون هذه الإشارة موضوع الكتاب التالى من دفاتر الإحياء "الإسلام دين وأمة وليس دين ودولة .

أن يستسلم لغواية الشياطين بالتفصيل الذى سيرد فى هذا الكتاب، فالمجتمع البشرى له طبيعة تعددية .

والمجتمع الإسلامى لا يشذ نوعيا عن المجتمع البشرى، لأن الإنسان مسلما أو غير مسلم، له طبيعة واحدة، ولكن المجتمع الإسلامى يختلف فى الدرجة وليس فى الطبيعة، وفى بعض التجليات، وليس فى كلها، فلا جدال أن فى الإسلام قوة خاصة تكيف سلوك المؤمنين به، وفيه من الضمانات ما تحول دون الاستسلام الكامل للشهوات والشرور أو الانسياق وراء خطأ الشيطان. أو انتهاج للسرف والشطط، ولكن هذه الضمانات قد لا تحول دون ممارسات أدنى من ذلك لأن للطبيعة البشرية - بعد كل شيء - حكمها وضعفها، ولأن الله تعالى عندما جيل النفس البشرية "ألهما فجورها ونقاها"

وأي محاولة لفرض قالب واحد مصمت على المجتمع بدعوى التوحيد الإسلامى، أو حتى الوسطية الإسلامية، وأي تجاهل للعوامل العديدة التى تؤثر فى هذا المجتمع أو تقف فى وجه التعددية تكون محاولة محكسوم عليها بالفشل بعد أن تستهلك وقتا وجهدا كان البناء الرشيد والقصد السديد أولى بهما وهذه هى قيمة المعرفة، إذ هى تميز ما بين الخطأ والصواب كما تهدينا إلى السبل الموصلة والوسائل الناجحة. فإذا لم تكن لدينا المعرفة بهذا كله نخبطنا وتوزعتنا الطرق وغلبت المماحكة أو غرقتنا الأماني وخدعنا السراب فنمضى طويلا دون أن نصل إلى شيء .

ولكى لا يحدث هذا وضعنا هذا الدفتر من دفاتر الإحياء، وأن يكون الثالث، بعد الحرية وتنوير القرآن هو ما يعبر عن الأهمية الكبيرة للموضوع فى الفهم السليم للإسلام ...

جمال البناء

القاهرة فى : أبريل ٢٠٠١
المحرم ١٤٢٢

الفصل الأول

توحيد الله يستتبع التعددية

في كل ما عداه

لم يصل دين من الأديان بتوحيد الله إلى الحب الذي وصل إليه الإسلام، وقد أهدرت اليهودية المعنى المطلق للتوحيد عندما جعلت الالهة الواحد إلها خاصا ببنى إسرائيل، ومن ثم فلا معنى للحديث عن التوحيد في اليهودية. أما المسيحية فقد ألقت ظلالا كثيفة على الالهة الواحد بفكرة الأقانيم الثلاثة، فإذا أريد للتوحيد بأجل معانيه فليس إلا الإسلام .

فإن الله في الإسلام هو الواحد الأحد الفرد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد. وقد أسهب القرآن الكريم في عرض صفاته تعالى وكلها تصب في هذا المعنى فهو الذي لا تتركه الأبصار وليس كمثله شيء. ونهى القرآن عن أن يضرب المؤمنون له الأمثال لو أن يجعلوا له أندادا لأنه لا مثيل له .

وقد أمل الفلاسفة القدامى أن يصلوا إلى الجوهر الفرد الذي لا يتجزأ، وظن بعضهم أنه يمكن الوصول إليه، وأنه سر الكون، ولكن هيهات فقد أثبت العلم الحديث أن ليس في الموجودات والقوى والعناصر جوهر فرد أو عنصر لا يتجزأ فكل شيء يتجزأ إلى ما لا نهاية، وكل جزء يرتبط

وينفصل عن بقية الأجزاء والجميع يدورون بانتظام أو بالتعبير المعجز ﴿كل في فلك يسبحون﴾ .

وعندما يتحدث القرآن الكريم عن الله الواحد الأحد فإنه يتحدث الإدراك الإنسانى رغم ما يبدو من بساطته وبداية فكرة للوحدانية فما أن يفكر الإنسان حتى يعجز عن تصور ما لأنه يعجز عن تصور كيان غير مركب من أجزاء وهو يتصور أنه إذا انتفت الأجزاء انتفى الكيان، ولا يوجد شيء، وليس إلا العدم ومن ثم فإما أن يكون مركبا من أجزاء وإما أن لا يكون، خاصة وأن القرآن يعزز ويعمق فكرة التوحيد وينزهها فتفى عنها كل شوائب التجسيد والتوثين، وأضفى عليها فى الوقت نفسه الحياة والقوة والإدراك والحكمة والسمع والبصر و ٩٩ اسما من الأسماء الحسنى بجائز الصفة الهامة التجريد ..

وعندما يقول الله تعالى عن نفسه إنه "الباقي" أو "الذى لا يموت" فإنه بالتبعية ينفى أن يكون لشيء أو مخلوق هذه الصفة - فكل ما نراه يتعرض للتغيير، وللموت، وللإنهاء - ﴿كل شيء هالك إلا وجهه﴾. والموت هو مصير الجميع فى هذه الحياة الدنيا ﴿كل نفس ذائقة الموت﴾. ﴿ أينما تكونوا يدرككم الموت ﴾ .

ولو قلنا إن هناك خالقا غير الله وباقيا غير الله لكان هذا شركا بالله وخروجاً عن "التوحيد" الإسلامى لأنه يشرك أحدا فيما خص للتوحيد الإسلامى الله تعالى - وحده - به .

وكذلك عندما يقول الله تعالى عن نفسه إنه الواحد الأحد. فمعنى هذا أن ليس فى الكون أو المجتمع لحدية ولكن تعددية يمكن أن تصل إلى مئات وألاف الصور .

وقد ضل الفلاسفة وبعض الذين تحدثوا عن "وحدة الوجود"، ووهم الشعراء الذين تصوروا الله تعالى في الشمس للبازغة والزهرة اليبانة والجمال الإنساني فهذه كلها من آيات الله في الخلق في أحسن تقويم، ولكنها ليست صفاته وأبعد منها أن تمس ذاته .

كما ضل كل من تصور أنه يمكن بحكم إيمانه وتقانيه في حب الله تعالى أن يصل إلى درجة من القرب بالله توجد نوعا من التوحيد فهيهات أناسا للإنسان أن يصل إلى هذا ولم يصل الرسول إلا إلى "قاب قوسين" من سدره المنتهى لأن ما بعد ذلك يخالف طبيعة التوحيد ويمكن أن يصل إلى حد الشرك .

وعندما يقول الله تعالى في عشرات، أو مئات الآيات أنه الخالق، فإنه ينفي بالتبعية أي خلق لغير الله تعالى ويصبح من ينسب قدرة الخلق إلى غير الله مشركا، وهو الذنب الوحيد الذي أعلن الله تعالى أنه لا يغفره إلا أن يتوب .

وهو لا يكفي بهذا المعنى الضمني، بل يعلنه مرارا وتكرارا فمن غير الله يخلق ؟ إن كل شيء عدا الله تعالى مخلوق ..

ووصل حرص الإسلام على إفراد الله تعالى وحده الخالق. أن حرم الإسلام في المرحلة الأولى لظهوره التصوير ونحت التماثيل لأنها نوع من "الخلق" يمكن أن يؤدي إلى الوثنية، خاصة والعرب حديثو عهد بها. فجاء في الحديث "من أظلم ممن ذهب يخلق كخلقى فليخلقوا ذرة" .

ولا يجوز لأحد أن يقول عن سيده "ربى" ولكن سيدي كما لا يجوز للسيد أن يقول "عبدى" ولكن فتاى ..

ولا يجوز لأحد أن يتألى على الله فيقول مثلا "والله لا يغفر الله له!" فمن ذا يتألى على الله، ومن ذا يعلم ماذا سيفعل الله .

ورفض القرآن فكرة أن يعبد العرب أوثاننا «لنقربونا إلى الله زلفى»
وندد بالذين اتخذوا أحيارهم أرباباً دون الله، وفسر الحديث ذلك بأن هؤلاء
الأحيار كانوا يحلون ويحرمون، وهذه المهمة هي ما يتفرد بها الله تعالى
فقيام الأحيار بها نوع من الشرك .

بل حتى الشفاعة، التي ليست إلا رجاء وسؤالاً، لا يجوز إلا لمن
أذن الله وبضوابط موضوعية- لأنه إذا عدمت هذه الضوابط فيمكن أن تتحول
الشفاعة إلى الشرك أو أن تقارب الشرك .

من هذا نفهم إن ما تطرق إلى بعض الأذهان ممن وجود
مجتمع إسلامي أحادي الطبيعة لأنه يدين بالتوحيد إنما هو ليس
وهم بل مفارقة لأن الإيمان بتوحيد الله يستتبع التعددية فيما سواه،
وأن هذه التعددية تصبح أمراً لازماً بحكم الواحدية الإلهية، لأنها تعد
للضرورة المنطقية أمام الواحدية الإلهية حتى لا يتطرق إثارة من
شرك لمعنى التوحيد الإلهي- وفي الوقت نفسه فإن الله تعالى هو
الذي أراد هذه التعددية ووضع لها آلياتها حتى لا يتطرق الخلل إلى
هذه التعددية وبهذا نجد التوحيد الخالص بالنسبة لله تعالى والتعددية
المنضبطة بالنسبة للمجتمع .

الفصل الثاني

إشارات القرآن إلى التعددية

كل من يتصفح القرآن الكريم، ويتأمل سوره سورة سورة، يجد أنه بمقدار ما حرص على إبراز وتأييد التوحيد بالنسبة لله تعالى بقدر ما أبرز التعدديات فيما عداه .

بل إن القرآن نفسه كان من أكبر مصادر التعددية، ذلك لأن أسلوبه المجازي وصياغته المتميزة للكلمة تجعل لها معاني متعددة، فما من كلمة قرآنية أو آية إلا ويمكن تقديم عدد من التفسير لها لأن القرآن أنزل لكل المسلمين في كل العصور وكان سر الأعجاز القرآني أن الكلمة القرآنية تتسع لتأويل يتفق مع مفاهيم العصر الحديث، كما تقبلتها مفاهيم العصر القديم. بل إن الأحكام (العقوبات) القرآنية نفسها التي يفترض فيها التحديد- صيغت بصورة عامة مما استوجب أن تقوم السنة بدور كبير في "البيان" القرآني، ونشأت عن هذا كله مجلدات التفسير والحديث وما بنى عليهما من فقه وسمح جو الحرية الأول بظهور المئات والألوف من التعدديات في العقيدة والشرعية قبل أن ينطلق باب الاجتهاد .

فالقُرآن نفسه يعد من أكبر مصادر التعددية، لو قل إنه الأصل ففى التعددية الإسلامية .

ويوضح لنا القرآن صوراً من التعددية أبعد وأكثر مما يتصوره أنصارها.. فهذا الكوكب الأرضى الذى نعيش عليه ليس إلا وحدة صغيرة من ملايين أو حتى بلايين الكواكب تفصل ما بين الأرض وبينها مئات السنوات الضوئية، وفوق بعضها الأرض حجماً مرات عديدة، ومره أخرى فإن كل هذه الكواكب والمجرات التى يضمها الكون ليست إلا عالم "الشهادة"، وهناك عالم آخر يطلق عليه عالم الغيب.. يبدأ حيث ينتهى عالم الشهادة، وفى عالم الغيب هذا جنة ونار، وعذاب وثواب ..

وفى عالمنا الصغير - كوكب الأرض - تتعدد الأنهار والبحار ويختلف الليل والنهار وترتفع الجبال والهضاب وتخفض السهول والوديان.. وهناك أنواع بمئات الألوف من الحشرات والطيور والنبات أما الإنسان نفسه فرغم أنه واحد يسير على قدمين فإنه متعدد الجنسيات والألوان والألسنة واللغات والأديان والمعتقدات فالكون الأرضى ومجتمعه الإنسانى أبعد ما يكون عن الوحدية .

واستبعد القرآن أن يكون الناس أمة واحدة ينتظمهم اتفاق ورأى لهم مختلفون، وسيظلون مختلفين تميز بعضهم عن بعض ألوان البشرة ولغة اللسان والعقائد والانتماءات.. وأنهم فى الأمة الواحدة سلف.. وخلف.. يختلف بعضهم عن بعض وأعتبر من آيات الله «اختلاف ألسنتكم وألوانكم»، وما أكثر مادة "اختلف" فى القرآن "اختلف - اختلفتم - اختلفوا - تختلفون - خلاف - اختلاف - مختلف" فهذه كلها تكل على مساحة واسعة للاختلاف وبالتالى التعددية ...

وإذا كان القرآن الكريم قد وصف أمة المسلمين إنها "واحدة" فهذا يعنى أنها واحدة فى عقيدتها ولكنه لا ينفى عناصر التميز والاختلاف والتنوع بين شعوب وفصائل هذه الأمة داخل الإطار الفسيح للعقيدة الواحدة

على إن القرآن الكريم لا يكتفى بهذه الإشارات العامة إلى التعددية ولكنه يقرنها بعدد من القواعد التي ترسي التعددية، ثم يصل إلى الغاية عندما يقرر التعددية الدينية وتعايش الأديان جنباً إلى جنب .

ومن القواعد التي ترسي التعددية في القرآن الكريم :

١. النص على أن الله تعالى خلق كل شيء من زوجين، وبهذا نفى
الواحدية من المجتمع وأثبت التعددية ابتداء من زوجين أو "أزواجاً"
بصيغة المجتمع .

□ «سبحان الذي خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض» . {٢٦ يس}

□ «والله خلقكم من تراب، ثم من نطفه ثم جعلكم أزواجاً» . {١١ فاطر}

□ «أو لم يروا إلى الأرض كم أنبتنا فيها من كل زوج بهيج» .

{٢٦ الشعراء}

□ «ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون» . {٤٩ الذاريات}

فهناك تعددية حتمية لأنها " الزوجية " ..

٢. تقرير مبدأ الدرجات بما يتضمنه ذلك من تفاوت، وبالتالي تعددية وقد
استخدم القرآن كلمة "درجة" ليميز بها بين فئات من المؤمنين فقال ..

□ «لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر والمجاهدون

في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم، فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم

على القاعدين درجة، وكلا وعد الله الحسنى، وفضل الله المجاهدين

على القاعدين أجراً عظيماً» . {٩٥ النساء}

□ (ولكل درجات مما عملوا، وما ربك بغافل عما يعملون) .

{الأنعام ١٢٢}

□ (وهو الذى جعلكم خلائف الأرض، ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليلوكم فيما أتاكم) .
{الأنعام ١٦٥}

□ (الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم أعظم درجة عند الله وأولئك هم الفائزون) .
{٢٠ الفتوة}

□ (ورفعنا بعضكم على بعض درجات) .
{الزخرف ٣٢}

وحتى بالنسبة للكبراء ..

□ (تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض منهم من كلم الله، ورفع بعضهم درجات) .
{البقرة ٢٥٣}

٣. تقرير مبدأ استباق الخيرات، وجاء تصوير القرآن لهذا المبدأ متضمنا حرية انطلاق الأفراد من منطلقاتهم الخاصة ..

□ (ولكل وجهة هو موليها، فاستبقوا الخيرات ..) .
{البقرة ١٤٨}

□ (.... لكل جعلنا منكم شرعه ومنهاجا، ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة، ولكن ليلوكم فيما أتاكم، فاستبقوا الخيرات إلى الله مرجعكم جميعا فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون) .
{٤٨ المائدة}

□ (والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رضى الله عنهم ورضوا عنه) .
{١٠٠ الفتوة}

□ (ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا، فمنهم ظالم لنفسه، ومنهم مقتصد، ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله ذلك هو الفضل الكبير) .

{٣٢ طه}

□ سابقوا إلى مغفرة من ربكم . {٢١ الحديد}

٤. تقرير مبدأ "التدافع" وهو أقوى من مبدأ استباق الخيرات، وقد جاء في سورتي البقرة والحج .

□ (ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض، ولكن الله ذو فضل على العالمين) . {٢٥١ البقرة}

□ (إن الذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله، ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا) . {٣٩-٤٠ الحج}

وهذا المبدأ يصور المجتمع وفعالياته، والصراع ما بين الحق ودعائه والباطل وأشياعه. كما يشير إلى بعض تجليات التعددية في الصوامع والمساجد والصلوات والبيع ...

٥. شمول العطاء الإلهي ..

تحدث القرآن الكريم عن الذين يؤثرون الحياة الدنيا على الآخرة، أو الذين يستسلمون للمغريات، وتقبل هذا كآمر واقع بحكم الضعف البشري الذي يستولى على بعض الناس. ولوضح أن عطاء الله ليس محظورا عليهم، وأن حسابهم لا يكون في هذه الدنيا، وإنما في الآخرة ..

□ ﴿ من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد، ثم جعلنا لـه جهنم يصلاها مذموماً مدحوراً. ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكوراً كلا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظوراً ﴾ . { ١٩ - ٢٠ الإسراء }

□ ﴿ من كان يريد حرث الآخرة نزد له في حرثه، ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها، وما له في الآخرة من نصيب ﴾ . { ٢٠ الشورى }

٦. تقرير مبدأ حرية الاعتقاد - ولعل تقرير القرآن لهذا المبدأ - أعظم دليل على تقرير التعددية في مبدأ هو صلب الأيمان جميعاً : الاعتقاد، وجاء تقرير القرآن له صريحاً لا يقبل لبساً، وفي العديد من الآيات التي يضيق هذا الموجز عن استيعابها مثل :

□ ﴿ لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي ﴾ . { ٢٥٦ البقرة }

□ ﴿ ... فمن يهتدى فإنما يهتدى لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها وما أنا عليكم بوكيل ﴾ . { ١٠٨ يونس }

□ ﴿ من اهتدى فإنما يهتدى لنفسه، ومن ضل فإنما يضل عليها ولا تزر وازرة وزر أخرى وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا ﴾ . { ١٥ الإسراء }

□ ﴿ وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ﴾ { ٢٩ الكهف }

وأوضح القرآن أن الدعوة إلى الإسلام لا تستتبع قسراً أو إغراء.. أو حتى ما لا يد وأن يساور نفس الداعية من أمل في الهداية وضيق بالرفض.. لأن الهداية من الله ودور الرسول هو البلاغ وليس له أن يأسي لرفض الراضين .

□ ﴿ ليس عليك هداهم.. ولكن الله يهدي من يشاء ﴾ . { ٢٧٢ البقرة }

□ «ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعا أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين، وما كان لنفس أن تؤمن إلا بإذن الله ويجعل الرجس على الذين لا يعقلون» . {٩٩-١٠٠ يونس}

□ «إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء» . {٥٩ الفصل}

□ «فأعلك باخع نفسك على أثارهم أن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا» . {٦ الكهف}

□ «أما من استغنى فإنت له تصدى وما عليك ألا يزكى» . {٥-٧ عبس}

٧. تقرير القرآن أن الأصل في الأشياء الحل، وفي الأعمال لابلح، وهي وأن كانت صياغة فقهية إلا أنها مستقاة من الآية ...

□ «كل الطعام كان حلا لبني إسرائيل إلا ما حرم إسرائيل على نفسه» . {٩٣ آل عمران}

□ «وسخر لكم ما في السموات وما في الأرض جميعا» . {١٣ الجاثية}

كما أن ذلك هو مفهوم جعل التحريم والتحليل وفقا على الله تعالى وحده فيما ينص عليه في القرآن الكريم جليا وصريحا، ومثل هذه التحريمات معدودة ولا تمس الأصل الذي هو الحل، وما يعنيه من تعددية .

* * *

ويثبت تقرير القرآن لهذه القواعد، أن القرآن الكريم يتفهم المجتمع البشري تفهما صحيحا وعميقا، ويحترم طبيعته، وأنه لم ير هذه الطبيعة جسما صلبا يستعصى على التطوير، كما أنه ليس جسما طريا تسير فيه سكين الإصلاح كما تسير في قالب زبد... وليس هو أيضا عجينه رخوة

هلامية، ليس لها قوام ويمكن تشكيلها حسب الإرادة أو الطلب. وإنما هو كيان معقد مركب متعدد يتفاعل بطريقته الخاصة، وله الطبيعة العضوية للجسم الإنسانى الذى يكتسب وجوده وحياته من الأعضاء والدم والأنسجة والأعصاب والعظام، كل منها يؤدي وظيفة محددة، وله الهيئة التى تمكنه من هذا وفى الوقت نفسه فإن عمل كل عضو من هذه الأعضاء يتلاقى ويتجاوب مع عمل بقية الأعضاء، وكلها تصب فى مجرى واحد وتستهدف غاية واحدة هى صحة الجسم الإنسانى وقيامه بمهامه نتيجة للتخصص الدقيق والتجاوب التلقائى بين كل هذه التخصصات، ويتم هذا بتعومة وسرعة تفوق فى بعض الحالات لمح البصر .

ويصدق هذا التصور على جسم كل فرد من البلائين الذين يمثلون مجموع الجنس البشرى وفى الوقت نفسه فما من فرد من هذه البلائين يشبه الآخر شيئا تاما فى كل شيء، وقد نجد عددا من الأخوة الأشقاء لأب وأم، وكل واحد منهم يختلف عن الآخر.. فبعضهم يرث صفات عن أمه، والبعض الآخر عن أبيه والبعض الثالث عن صفات مضمورة فى الأعمام والأخوال والأجداد الخ... وما من واحد منهم له بصمة يد تشبه بصمة أخيه. فضلا عن الآثار الاجتماعية المكتسبة والمختلفة لكل واحد كحظته فى الزواج والعمل، والموقع الذى يعيش فيه والتعليم الذى ناله .

هذه هى صورة المجتمع البشرى، والقرآن الكريم الذى تنزل من لدن خالق هذا المجتمع. يعامل المجتمع تبعا لهذه الطبيعة .

وكان يجب أن تؤدي طريقة تعامله مع المجتمع البشرى وإشاراته المتكررة التى تصب فى بحيرة التعددية لجعل المجتمع الإسلامى مجتمعا تعدديا بمعنى الكلمة تزدهر فيه الآراء.. وتتلاقح الأفكار ويدلى كل واحد بدلوه، ويرفع كل واحد صوته، ولكن هذا لم يتحقق إلا فى بعض جوانب الحياة، ولفترة محدودة مما جعل الإنسان يتساءل كيف حدث هذا، ولماذا ...

لقد كانت الفترة الذهبية القصيرة في تاريخ الإسلام هي الفترة النبوية والخلافة الراشدة، وقد حدثت في مجتمع ساذج بسيط هو المجتمع ما بين مكة والمدينة فلم يتطلب تعددية كبيرة، ومع هذا فإن صحيفة المواقعة التي وضعها الرسول غداة قدومه المدينة، واعترفت باليهود جنبا إلى جنب الأنصار والمهاجرين واعتبرتهم "أمة واحدة" نموذج فريد في تقبل التعددية على قدم المساواة وداخل إطار فسيح يضم مختلف الأعراق والديانات .

كما أن موقف الرسول من "المنافقين" الذين صرح القرآن بكفرهم، وعدم اتخاذ إجراء نحوه، بل صلاة الرسول على جثة كبيرهم عبد الله بن أبي هي صورة نادرة من السماح بوجود الآخر.. وقبول ما يعلنه رغم أنه يضممر عكس ذلك الأمر الذي يضع مبدءا من أخطر المبادئ وأهمها هو أن المحاسبة تكون على الظاهر، أما باطن الإنسان، وما يقر في أعماقه وبين جنبه فيجب أن لا يكون موضوعا لبحث أو محاسبة، كما يجب ملاحظة أن إشارات القرآن الخاصة بحرية الاعتقاد كانت في أصل سماحة الإسلام تجاه الأديان الأخرى وإقراره كل ذي دين على دينه على نقيض سياسة الدول الأوربية التي كانت تفرض على اليهود والمسلمين نبذ دياناتهم والإيمان بالمسيحية حتى مشارف العصر الحديث .

ولو أستمروا التقدم الحضاري للمجتمع الإسلامي، ولم يبتلى بما أوقفه، لكان من المحتمل أن تصل التعددية في هذا المجتمع إلى مستوى قريب مما وصلت إليه التعددية في المجتمع الأوربي لأن طبيعة التعددية تملئ عليها ظهور التجليات العديدة للنفس البشرية حسنة أو سيئة، وصور الإغواء وإشباع الشهوات بمختلف الطرق، وسرى التكيف "الشرعي" لمثل هذا الوجود. في مجتمع إسلامي طبقا لما يقرره القرآن، ولازدهرت الفنون والآداب ومشاركة المرأة في حياة المجتمع، ولما فقد المجتمع جمالياته التي جعلته يشبه صحراء غبراء بلقع.. إن هذا التطور لم يحدث، فقد قضت عليها النظم الحاكمة الاستبدادية والتقليد الفقهي المغلق .

ويصور تطور الفقه الإسلامى هذه المأساة فى فترة الازدهار طوال القرون الثلاثة الأولى تعددت الاجتهادات تعدداً وصل إلى حد البلبلة، وتعددت، وتناقضت الأحكام فى المدينة الواحدة ويقدر ما كان هذا يدل على درجة عالية من الحرية والخصوبة فى الفكر، يقدر ما كان يتطلب نوعاً من التنظيم، ولكن هذا تأبى على المجتمع وقتئذ. فالتجأ الفقهاء إلى إغلاق باب الاجتهاد.. وكانت تلك بداية النفق المظلم الذى سار فيه الفكر الإسلامى قرابة عشرة قرون فقد تجمد الفقه، وحبس فى قميص المنطق الصورى الأرسطى، وتجمد معه الفكر الإسلامى.. وشيئاً فشيئاً أصبح الفقهاء هم رجال القانون الذين يحفظون النظام القائم ويعبرون عن سياساته، وبذلك فقد المجتمع الإسلامى حريته الفكرية بعد أن فقد حريته السياسية .

والحرية هى أم التعددية فإذا لم تعد حرية فليس هناك تعددية

ومع هذا فإن المجتمع الإسلامى بحكم الحيوية لفائقة للإسلام والروح الثورية والتحررية للقرآن، لم يفقد صوراً عديدة "للتعددية" فظهر فى العصر العباسى فى بغداد ما لم يظهر فى روما من التعددية الفكرية ما يبين الإلحاد (أو الزندقة كما كانوا يقولون) حتى التزمت فظهرت للطرق الصوفية وازدهرت بينما انتعشت دعوة "إخوان الصفا" الغامضة المتحررة ووجدت من الملل والنحل ما ملأ كتاب ابن حزم والشهرستانى، وما يصعب تصوره الآن، وقرأنا عن ندوات تجمع الصوفى، والملحد والمتكلم والفقيه لا يرفض أى واحد منهم الآخر، ولكن يكله إلى خالقه .

أما فى القضية الحساسة "المرأة" التى كان يمكن أن تكون أصلاً لعدد كبير من التعدديات فإن إشارات القرآن إلى تحريرها ومساواتها، وممارسات الرسول المتعاطفة مع المرأة. لم تنجح كلها فى اقتلاع "حمية الجاهلية" التى انتقلت من العهد الجاهلى حتى العصور التالية.. وكان المجتمع الجاهلى الذى

يقوم على النهب والسلب لا يعترف بالمرأة لأنها لا تحارب ولا تأتي بغنيمة وترسب هذا المعنى في نفسية المسلمين حتى بعد أن تغير المناخ الاجتماعي في بغداد، وقد حل هذا المجتمع مشكلة المرأة باتخاذ الإماء (الجوارى) والقيان والسماح لهن بأداء دور يكسر حدة إبعاد المرأة عن الحياة وحجبها في البيوت بحيث سمح هذا التطور بظهور صور من المجتمع المختلط وإن لم تكن الصورة سليمة ..

* * *

فإذا كان انعدام التعددية في المجتمعات الإسلامية إنما يعود بالدرجة الأولى إلى فقد هذه المجتمعات لحياتها السياسية والفكرية، وليس إلى سبب أصولي في الإسلام فإن استعادة هذه الحرية يمكن أن تحقق التعددية، وتلك هي المشكلة التي يكون على المجتمع الإسلامي الحديث أن يجابهها بقوة، ذلك أن الألفة الطويلة لعهود الانغلاق كانت تطمس الإشارات المتكررة للقرآن الكريم عن الحريات والتعدديات خاصة بعد أن قام المفسرون بتأويلها تأويلات تميل بها عن هدفها كما حدث بالنسبة لحرية الاعتقاد يدل على ذلك متابعة المفكرين الإسلاميين المحدثين لما ذهب إليه الفقهاء القدامى من تطبيق حد الردة على كل من أنكر معلوما من الدين بالضرورة، إذا رفض الاستنباط، وهو نص مناقض لكل آيات حرية الاعتقاد في القرآن الكريم التي عرضنا لها، بل ومناقض لسلوك وعمل الرسول الذي لم يحدث أبدا أن أوقع حدا لمجرد تغيير الدين، وإنما ضم إلى ذلك مقاومة الدولة والتخلي عن الجماعة والانحياز إلى الأعداء ..

وهو ما يدل على ضرورة معالجة القضية في صورتها التي يمكن أن تأخذها عمليا معالجة لا تخشى المصارحة بل تقوم على المجابهة ...

الفصل الثالث

تقرير تعددية الأديان

يصل القرآن إلى الغاية في التعددية عندما يقرر - وهو الذى يختلف عن المسيحية واليهودية وبقية الأديان الأخرى - قبول وجود هذه الأديان والتعايش معها ..

وهذا الموقف الفريد - لأننا لا نعلم مثيلاً له بين الديانات الأخرى - يعود إلى سببين أولهما تاريخي وثانيهما موضوعي .

أما السبب التاريخي فإنه يعود إلى النشأة التاريخية للديانات السماوية الثلاث: اليهودية، والمسيحية، والإسلام .

فكما هو معروف فقد ولد سيدنا إبراهيم فى العراق وعاش ربحاً من الدهر فى "أور" الكلدانية ثم تنقل ما بين مصر وفلسطين حتى مات ودفن فى بئر سبع .

وكانت زوجة إبراهيم "سارة" عاقراً فدفعت بسيدة جاءت بها من مصر هى هاجر إليه ليتزوجها عسى أن تلد له ولداً. وهذا ما حدث فقد ولدت له هاجر بكر أبناؤه "إسماعيل" وتملك الغنط والغيرة سارة، ودفعت

زوجها لأن يبعد هاجر وأبنتها عنها. فأخذهما إلى الحجاز وأودعهما ذلك المكان الذى سيصبح أقدس الأماكن، وتركهما. وبعد فترة أشد العطش بها ويطلقها، وأخذت تروح وتجيئ بحثا عن المياه حتى عثرت على بئر زمزم فارتوت، ولاد بالبئر نفر من العرب، ونشأ إسماعيل معهم وتزوج منهم وأصبح رأس العرب العدنانيين الذى سيولد منهم رسول الإسلام العظيم محمد بن عبد الله .

وقد لا يفهم الإنسان الحكمة فى هذه العملية كلها، وقد يستشعر غيظا من سارة التى أصرت على إيعاد هاجر وإبراهيم الذى أطاعها، ولكنهما كانا مسيرين بإرادة الله وبعنايته الذى شاء أن يستقل هذا الفرع من أسرة إبراهيم بدين هو الإسلام.. ويشعب هو العرب .

ولنعد إلى السياق فبعد أن عاد إبراهيم إلى موطنه لوحى إليه الله تعالى أن سيرزق من سارة العجوز بابنين هما إسحق، ثم يعقوب .

ومن يعقوب الذى يطلق عليه إسرائيل جاءت الأسباط التى كونت شعب بنى إسرائيل وتكرر بالنسبة ليعقوب ما حدث بالنسبة لإبراهيم فقد وقعت المجاعة للمجاعة بديارهم وأرسل يعقوب بعض أبنائه إلى مصر ليمتاروا منها وغار الأبناء من أخيهما الصغير يوسف الذى كان والده يؤثـره بالحب.. فتأمروا عليه وباعوه بدورهم لأحد حكام مصر .

وظفر يوسف باحترام الحاكم عندما فسر له حلمه للمشهور عن سبع بقرات عجاف تأكل سبع بقرات سمان. بأن سيحدث فى البلاد قحط يستمر سبع سنوات.. وعينه مديرا لخطة مقاومة القحط .

وعندما جاء للمرة الثانية – أخوته – عرفهم بنفسه وطلب منهم إحضار الأسرة كلها فجاءوا وأقاموا فى إحدى مناطق الشرقية بالوجه

للبحرى، وأمضوا أجيالا عديدة تكاثروا فيها حتى ضاق بهم المصريون فاستعبدهم وشغلوهم فى بناء المعابد (وهذا لا ينطبق على الأهرام لأنه جاء بعد الأهرام بمئات، وربما آلاف السنين) حتى ظهر منهم موسى الذى تربى فى بيت فرعون ونشأ كنزيل مصرى ولكنه تبنى قضية بنى إسرائيل ودخل فى صراع مع فرعون وأيده الله وجعله نبيا وكتب له النصر على فرعون بحيث خرجوا من مصر "بيت العبودية" فذهبوا إلى فلسطين "ليستعبدوا" الفلسطينيين وتوالت الأجيال حتى ظهر فيهم عيسى السيد المسيح الذى أراد هداية خراف بنى إسرائيل الضالة فانقلبوا عليه وتوصلوا إلى محاكمته، وصلبه "وما صليوه.. ولكن شبه لهم" .

وبعد قرابة ستة قرون من ظهور المسيحية أذن الله تعالى بظهور الإسلام على يد محمد بن عبد الله وهو سليل إسماعيل بن إبراهيم .

وكانت القضية تتكرر عندما أهدى المقوقس للرسول مارية المصرية القبطية، وعندما أنجبت من الرسول وولدت له إبراهيم.. ولكن الله تعالى لم يشأ لإبراهيم أن يعيش فمات طفلا .

وهكذا نجد أن الديانات الثلاث نشأت عن أب واحد، وهو ما يجعلنا نفهم كلمة الرسول عن الأنبياء أنهم "أبناء علات" أبوهم واحد ولهماتهم شتى، وارتبطت تاريخيا وجغرافيا بمكان وزمان متقارب قبل أن يتفرغ كل دين ويذهب إلى قارات الأرض، وكان يفترض أن تكون العلاقة بينهم كالعلاقة ما بين الأخوة، ولكن سدة كل دين ضاقوا بالدين الآخر.. وساد الجميع نوع من الفتور، إن لم يكن العداء.. وكانت العلاقة على أسوأها ما بين المسيحيين من ناحية واليهود والمسلمين من ناحية أخرى، وكانت على أخفها ما بين المسلمين من ناحية والمسيحيين واليهود من ناحية أخرى، ذلك لأن الإسلام كان عليه كأخر الأديان أن يحدد الموقف بالنسبة للأديان التى سبقته فوضع

مبدأ القبول لكل الأديان، وحرية أصحاب كل دين في ممارسة دينهم دون أى تقييد، وتطبيقاً لهذا المبدأ ظفر المسيحيون واليهود بالحرية الدينية الكاملة .

ويغلب أن تدق الحكمة الإلهية فى الطريقة التى ظهرت بها الأديان الثلاثة، والسياق الذى أخذته فى حين أن إنعام النظر يمكن أن يكشف فى كل حركة منها حكمة فقد شاء الله تعالى أن يظهر إبراهيم فى الجناح الأيسر فى المنطقة العربية. ويغرس دينه فيها، ثم أراد الله أن يسكن أحفاده فى مصر ليظهر موسى ويعطى اليهودية ويقود بنى إسرائيل إلى فلسطين ليظهر فيها بعد عدة قرون المسيح ويعطى المسيحية.. وبعد عدة قرون أخرى أعلن محمد بن عبد الله - سليل إسماعيل الذى أبعده إلى الحجاز - الإسلام .

ولا جدال أن فى إرادة الله تعالى وجود الأديان الثلاثة جنباً إلى جنب حكمة كبيرة فقد أراد لها أن تتحد فى الأب وتختلف فى الأم فتكون "أبناء علات" كما قال الرسول ليتحقق فيها عنصر من الوحدة وعنصر آخر من التميز كما لم يشأ أن ينفرد واحد منها بالبشرية، فهذا يتعارض مع التعددية التى هى فى طبيعة المجتمع البشرى، وما لا يكون هناك مفر منه، وعادة ما يفضل الأب أن يكون لأبنة الواحد أخ يلاعبه ويكسر فيه حدة الاحتكار ويحقق كل ما فى "التجمع" من مزايا سواء كانت فى العاطفة أو فى الإضافة، التى يضعها الثانى إلى الأول والثالث إلى الثانى .

فوجود أديان ثلاثة التى هى الحد الأدنى للجمع، وتُصاف كل منها بمعالم مميزة يمثل تعددية "الأسرة" التى تعرف أبناءها قواعد التعامل والأخذ والعطاء وما يكون لها وما يكون لغيرها. وأداب الائتلاف والاختلاف وأن يكمل ما لدى الواحد ما ينقص الآخر. فاليهودية بتوحيدها الصلد، والمسيحية بمحبتها والإسلام بعنله. كلها تمثل التكامل المطلوب فى عالم القيم .

إن التكليف الإسلامى لهذه الدرجة من تعدد الديانات على أساس التعايش والتسامح والتكامل لهو أفضل للخيارات فهو أفضل من وجود دين

واحد فحسب لن يتجاوب مع الطبيعة البشرية، ويحرم من مزايا المنافسة ووشائج القربى فى وقت واحد. وهو أفضل من وجود عشرات الأديان الذى يؤدى إلى التفتت. وقيام العلاقات التى توجدتها التعددية على أساس السماح تمثل العطاء والتكامل وهو الوضع الأصولى لأنها كلها تنبهل إلى إله واحد وتتحدى بقيم الحب والخير والعديل وما الذى يدفع ديننا منها لأن يتكاثر على حساب الآخر وفى كل دين مئات الملايين ولكل دين نكهته وضرورته وأضافته إلى الحضارة "لكم دينكم ولى دين".

إن الدين هو البيت الكبير الذى يضم على الأقل وما نحن بصدد، الأديان الأخوة "اليهودية والمسيحية والإسلام" الثلاثة، وأن يكون لكل واحد منها دور فيه يمثل قدرا من استقلال داخل الإطار الواحد، وأن يحسب كل واحد نفسه وأبناءه لا يعنى بالضرورة أن يكسره أخويه وأبناءهما لو ألا يخصهم بجانب من الحب لأن الحب يتسع للجميع ويسعد به الجميع .

وجود أخوة ثلاث فى البيت أفضل من أن يستأثر واحد فحسب بالبيت، لأنه وإن كان البيت سيصبح خالصا له، فسيكون عليه مسئولية القيلم بنفقاته وأعبائه ثم يمكن أن يقع فى مزالق "المنفرد" الذى تتملكه الأثرة والأنانية، ولا يجد شريكا يكبح جماحه ويتحمل معه الخسارة. أما لريح فلن استخدام العقل واستلهم القلب يضاعفه ويجعله أكثر مما كان يمكن للفرد وحده أن يصل إليه .

• • •

هذا عن السبب التاريخى ..

أما السبب الموضوعى لتقرير الإسلام تعددية الأديان، فإنه يعود إلى تكيف الإسلام لفكرة "الله" باعتباره خالق الكون بأسره، والوجود كله. فى حين أنه فى الفلسفة كان مجرد "فرض لحل سلسلة الخلق" دون أن يتضمن

هذا الفرض بالضرورة خصائص الحياة والفعالية والمقدرة الخ.. كما أنه في الأديان الأخرى كان إلها محليا، للمصريين أو البابليين أو بنى إسرائيل، بينما ألقت عليه الوثنية بأوضاع ولوثات تصوراتها الفجة والبدائية، إن "الله" في الإسلام هو خالق الكون بأسره وجابل البشرية، وأصل القيم العليا من حكمة وقدرة وعدل وخير وسلام الخ.. وواضع النظم التي يسير عليها الكون كما يسير عليها المجتمع البشرى، وهو الذى أنزل الديانات كلها من لدن آدم حتى محمد، بما في ذلك رسل وديانات لم يقصص علينا القرآن أنباءهم. فما دام الأمر كذلك فلا يفترض أن يكون في تعددية الأديان تناقض أو تنافر لأنه تعالى هو الذى أنزلها ولأنه يرسل الرسل وينزل الديانات تبعا لحاجات البشرية المتفاوتة والمتعددة حسب الأزمان والعصور والأجناس والملابسات التى تتحكم في كل جنس وشعب. وهذه الأديان كلها تؤثر، وتتأثر بأوضاع مجتمعاتها، ولا يستشعر القرآن حرجا أو حساسية في ذلك لأن كل شئ من خلق الله.. قلن يكن فرار من قدر الله إلا إلى قدر الله، وعندما مثل الرسول "أرأيت رقى نسترققها ودواء نتداوى به وثقاة نقيها هل ترد من قدر الله فقال هي من قدر الله" ولأن الله تعالى وضع أصولا ومبادئ تحكم للمجتمع. وفي الوقت الذى لا يمكن أن يغيب مقال ذرة في هذا الكون اللانهائى عن علم الله. فإن الإنسان ليعطى نفسه أهمية قد لا تكون له إذا تصور أن الله تعالى ليس لديه عمل إلا متابعتة، فأين هو من ملك الله ..

من هنا فإن منطق الخطأ والصواب لا يمكن أن يطبق على الأديان. فكل دين يمثل إحدى احتياجات البشرية. واختلافها يعود إلى اختلاف الاحتياجات والملابسات والعصور والبيئات .

وليس هناك حساسية في القول بأن الأديان، وأن كانت منزلة من الله فإنها تصبح "ظاهرة اجتماعية" عندما يتعامل الناس معها. الأمر الذى أشار إليه القرآن عندما تحدث عن غلبة الأهواء التى تحرف الكلم عن حقيقته

وأثار مر الغداة وكر العشى وتوالى القرون وكيف تقسوا القلوب عندما يطول عليها الأمد وتتجمد المشاعر والعواطف أو تتقلب الخ..

يجب أن التفريق بين ما جاء فى القرآن الكريم الذى هو للتعبير الحقيقى عن الإسلام. وبين ما ينتهى إليه رجال الدين فى كل عصر ولوان من فهم لحقيقة الرسالات الإلهية لأن هذا الفهم لابد وأن يتأثر برواسب فكر هذه المجتمعات. وقصور الإدراك البشرى وغلبة المصلحة والذاتية على نفوس الذين يتحدثون باسم الأديان ويرون أنفسهم حراسها وحفظتها وما يسلك إليهم مع احتكارهم لتمثيل الدين من انحرافات .

وهذه الظواهر توجد فى كل المجتمعات ويتأثر بها رجال الدين من مسلمين أو مسيحيين أو بونيين الخ.. وهى السر فيما يصدره رجال الدين من أحكام ينسبونها إلى الدين .

وموقف الإسلام الذى جلاه القرآن الكريم واضح دون خفاء، وقد كرره القرآن مرارا وتكرارا فى عديد من الآيات. أن الله تعالى أراد هذه التعددية الدينية، بما تتضمنه من اختلافات لا مناص عنها بحكم ما أرسله الله من أسس يسير عليها المجتمع. ولما كان الاختلاف ليس فحسب ولرداء، بل هو مطلوب، فإن الله تعالى خص نفسه بالفصل فيما كانوا فيه يختلفون يوم القيامة .

وبهذا حسم القرآن شأفة الخلاف، وحرم على كل فريق أن يدعى الأفضلية وإن يرى أن الآخرين ليسوا على شئ، ولأن يدعى الجنة لنفسه والنار للمخالفين فهذا ليس من حقه، وفيه أفتيات وتآلى على حق الله تعالى، وإن هذا كله "أمانى" يصدر عنها كل فريق من منطلق ذاتى والأمر ليس بآمانى المسلمين أو أهل الكتاب أو غيرهم ..

وحكمة الله تعالى في هذا كله أن الأديان رغم اختلافها تنتهي كلها إلى حقيقة واحدة هي الألوهية فالاختلافات لا تتال الجوهر - كما يبدو لبعض الذين يحول استغراقهم في أنفسهم دون فهم الآخرين. فالملايين في أوروبا وأمريكا الذين يقولون "لأننا الذي في السماء" لا يفهمون منه إلا ما يفهمه المسلمون من حديث "الناس عيال الله" ومن المؤكد أنهم لا يفهمون، ولا يعنون بالأقائيم الثلاثة وعلاقة كل واحد بالآخر، أما التعميد في المياه، أو تناول القربان فليس إلا طقوس وتقاليد لا تضر، وقد تفيد، وفي هذه الدول التي لا تؤمن بالإسلام يعمل الناس بجد وإخلاص ولديهم الصدق في القول والإنقان في الأداء والوفاء بالعهود والخلق الحسن، كما يعد كذب الساسة فيما يدلون به من وقائع أو بيانات أمام القضاء أو مؤسسات الدولة جريمة كبرى قد لا يكفر عنها إلا بالاستقالة كما حدث بالنسبة لنيكسون الذي أتهم بالتجسس على خصومه السياسيين وللرئيس كلينتون بالنسبة لعلاقته بإحدى موظفات البيت الأبيض، وقد تعرض للوم والتقريع ودفع غرامة كبيرة والحرمان من ممارسة المحاماة لمدة خمس سنوات في حين أن معظم قادة الدول الإسلامية ليس لهم من كلام إلا الكذب والتزييف وليس لهم من عمل إلا الاستبداد والتحكم، وبهذا فإن المجتمعات الأوروبية قد تكون أقرب إلى الله، وإلى المثل والقيم الإسلامية، من عديد من المجتمعات التي تدعى الإسلام .

أنكر أني كنت في شتاء عام ١٩٤٨ في معتقل الطور مع الإخوان المسلمين الذين اعتقلوا بعد الحل الأول للإخوان. وكان المعتقل الذي غرس وسط الصحراء القاحلة يبدو ليلا متلاكي-الأضواء بفضل المصابيح الكهربائية التي أقامتها إدارة المعتقل لفرض الحراسة ويفضل ما توصل إليه الإخوان خاصة الكهربائيين منهم من استخدامات للطاقة الكهربائية في تسخين المياه للاستحمام والغسل والطهي الخ.. وكنت أقول للإخوان إلا تظنون أن الله تعالى سيدخل "أديسن" الجنة، بعد أن أتاح للبشرية كل هذه الأنوار فيردون بقوة "كلا أنه لم يؤمن بالله ولا الرسول" وكأنهم تصوروا أن الإسلام ظهر في أمريكا وأن الرسول دعا أديسن والأمريكيين إلى الإسلام فرفضوا .

وكننت أرد عليهم - صدق الله ﴿ قل لو أنتم تملكون خزائن رحمة ربي إذا لأمسكنكم خشية الأنفاق وكان الإنسان قتورا ﴾ .

وقد أن للدعاة الإسلاميين أن يعلموا أنه ليس مطلوباً منهم، أن يكسبوا للإسلام مؤمنين بأديان أخرى، وليس من حقهم أن يحكموا على الآخرين بالنار كأن مفاتيح الجنة والنار في أيديهم. أن هذا منتهى الأفتيات والتألي بل الوقاح، في حق الله تعالى. أن كل ما طلبه القرآن - بعد أن قال ﴿يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم﴾^(١) . هو أن يكونوا "شهداء على الناس" ويقتضى هذا أن يعرفهم على الإسلام ثم يتركهم لأنفسهم لأن تغيير الدين ليس مسألة إيمان قلبي ونظري فحسب، ولكنه يتطلب تعقيدات اجتماعية وترتيبات في الميراث وغيره، ولأن الهداية من الله وليست من الرسول ..

ولكن يبدو أن كل هذا لم يفهم من المسلمين المعاصرين، ولم تؤثر في أحكامهم وتصوراتهم أو في النزعة الدفينة في نفوس بعضهم، فقد قرأت عدداً خاصاً من مجلة التوحيد عن التعددية حاول أن يطرح هذه القضية بكل إخلاص وعمق ورغبة في التوصل إلى الحقيقة، ومع هذا فإن التيار الفكري الكاسح الذي يسيطر على الفكر الديني جعل محور المعالجة يدور حول أمرين :

الأول: هل يمكن قبول تعدد الأديان، وهلا يعني هذا خطأ البعض وصواب الآخر ..

والثاني: ما هو مصير الذين لا يؤمنون بالإسلام يوم القيامة وهل سيكون مصيرهم إلى النار^(٢) ..

(١) أنظر شرحها فيما سيلي ..

(٢) مجلة التوحيد السنة التاسعة عشر خريف ١٤٢١ - ٢٠٠٠ طهران - قم - أنظر من ١٥ - والعديد كله عن التعددية .

ثم لا يقفون عند هذا، ولكنهم يقطعون بأنهم فى الجنة وأن مخالفهم فى النار^(١) .

وأى جراءة على الله مثل هذه الجراءة وهل يملكون هم مفاتيح النار أو يقدرون على زج الناس فيها.. وعلى أى أساس بنوا هذه النتيجة الفاسدة ولين هم من رحمة الله التى لا تحد، والتى تثيب بسبعمائة ضعف ولا تعد رحمة الأم بأبنائها إلا جزء من مائة جزء هى رحمة الله.. وفى النهاية قد لا يسزج فى النار إلا بالمارد المتمرد، كما جاء فى أثر كريم. منشير إليه فى فقرة تالية ..

وقد عالج هذا الموضوع معالجة وافية فقيه أزهرى مجدد لم يظفر بالشهرة التى كان يستحقها هو الشيخ عبد المتعال الصعدي رحمه الله فى كتابه "حرية الفكر فى الإسلام" الذى ظهر فى أربعينات القرن العشرين، وسنعرض هنا للفقرة التى كتبها على طولها لتتضح الصورة .

فتحت العنوان الفرعى "رأى الجاحظ والعنبرى فى عذر غير المعاند فى الحق" قال الشيخ عبد المتعال الصعدي ..

"وهناك فريق آخر على رأسه الجاحظ والعنبرى من أئمة المعتزلة يرى أنه لا إثم على المجتهد مطلقاً، وإنما الإثم على المعاند فقط، وهو الذى يعرف الحق ولا يؤمن به عناداً واستكباراً، فالمجتهد المخطئ عند هذا الفريق غير آثم، ولو أداه اجتهاده إلى الكفر الصريح، لأن تكليفه عندهم بنقيض اجتهاده تكليف بما لا يطاق، والتكليف بما لا يطاق ممتنع شرعاً وعقلاً، وقد أوجب الجمهور عن هذا بأن التكليف بما لا يطاق ممكن غير ممتنع عقلاً ولا عادة، فلا يكون من المستحيل فى شئ، وفى هذا الجواب

(١) فإذا قيل أن الله تعالى قد قضى بالجحيم لغات من الناس قلنا إنه ليس لنا أن نعين هذه اللغات أو نزع أن أشخاصاً معينين يدخلون فيها .

من الضعف ما هو ظاهر، لأن الله تعالى يقول: ﴿لا يكلف الله نفسا إلا وسعها﴾. {البقرة} ٢٨٦ فهو ممتنع شرعا وعقلا .

ولا شك أن مذهب هذا الفريق ظاهر في نفس الإثم مطلقا عن المجتهد المخطئ بمقتضى دليلهم السابق، ولكن بعض المتكلمين رأى متطفلا عليه أن يقيد ببعض المسائل الخلافية بين الفرق الإسلامية، مثل نفى رؤسة الباري تعالى، ومثل القول بخلق القرآن، فلا يدخل فيه ما هو من الكفر الصريح، ولكن هذا خلاف مذهب هذا الفريق كما هو ظاهر .

وقد استدل الجمهور لمذهبهم بإجماع المسلمين قبل ظهور هذا الفريق على وجوب قتال الكفار مطلقا، وعلى أنهم من أهل النار مطلقا، وهذا من غير فرق بين معاند منهم وغير معاند، ولو كانوا غير آثمين لما ساء قتالهم، ولما كانوا من أهل النار أيضا .

والشق الأول من دليل الجمهور مبنى على مذهبهم في وجوب قتال الكفار على كفرهم، وقد ثبت في عصرنا بطلان هذا المذهب، لقوله تعالى ﴿لا إكراه في الدين﴾ {البقرة} ٢٥٦ وكل آيات القتال في القرآن ظاهر في أن قتالنا للكفار مسبوق بقتالهم لنا، فنحن نقاتلهم على قتالهم لنا، لا على كفرهم، وقد بينت هذا في بعض كتبي، وبينه السيد محمد رشيد رضا في تفسير الآية السابقة من سورة البقرة، ولا داعي إلى تكره الآن هنا، وسيلتي في موضوعه من هذا الكتاب .

والشق الثاني من دليل الجمهور فيه مصانرة على المطلوب، لأن أصل النزاع بين الجمهور وهذا الفريق في كون الكفار غير المعاندين آثمين ومن أهل النار، أو غير آثمين ولا من أهل النار، ودعوى الإجماع في ذلك لا قيمة لها، لأن الإجماع لا بد له من دليل يستند عليه، والدليل قائم عند هذا

الفريق على أن الكفار غير المعاندين غير آثمين، وهذا إلى إنكار بعضهم للاحتجاج به .

وقد ذهب الشيخ محمود شلتوت في كتابه - الإسلام عقيدة وشريعة - إلى مثل هذا، فنذكر أن من لم يؤمن بالله ولا برسله ولا بنحو ذلك لا تجرى عليه أحكام المسلمين فيما بينهم وبين الله، وفيما بينهم بعضهم بعض، وليس معنى هذا أن من لم يؤمن بشئ من ذلك يكون كافراً عند الله يخلد في النار، وإنما معناه أنه لا تجرى عليه في الدنيا أحكام الإسلام، فلا يطالب بما فرضه الله على المسلمين من العبادات، ولا يمنع مما حرمه الإسلام كشرب الخمر وأكل الخنزير والاتجار بهما، ولا يغسله المسلمون إذا مات ولا يرثه قريبه المسلم في ماله، كما لا يرث هو قريبه المسلم إذا مات .

أما الحكم بكفره عند الله فهو يتوقف على أن يكون إنكاره لتلك العقائد أو لشئ منها بعد أن بلغته الدعوة على وجهها الصحيح، واقتنع بها فيما بينه وبين نفسه، ولكنه أبى أن يقنعها ويشهد بها عنسداً واستكباراً، أو طمعاً في مال زائل أو جاه زائف، أو خوفاً من لوم فاسد، فإذا لم تبلغه تلك العقائد، أو بلغته بصورة منفرة، أو صورة صحيحة ولم يكن من أهل النظر، أو كان من أهل النظر ولكن لم يوفق إليها، وظل ينظر ويفكر طلباً للحق حتى أدركه الموت أثناء نظره، فإنه لا يكون كافراً يستحق الخلود في النار عند الله .

ثم قال: ومن هنا كانت الشعوب النائية التي لم تصل إليها عقيدة الإسلام، أو وصلت إليها بصورة سيئة منفرة، أو لم يفقهوا حجته مع اجتهدهم في بحثها - بمنجاة من العقاب الأخرى للكافرين، ولا يطلق عليهم اسم الكفر. والشرك الذي جاء في القرآن أن الله لا يغفره هو الشرك الناشئ عن العناد والاستكبار، الذي قال الله في أصحابه ﴿وجدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً﴾ {١٤ النمل} .

وهذا صريح في اختيار الشيخ محمود شلتوت لمذهب هذا الفريق،
لولا أنه خلط بين مذهب هذا الفريق ومذهب الجمهور فيما رتبته على ما
ذهب إليه من النتيجة المقصودة، وهو أن من كان من الكفار من أهل النظر
وظل ينظر ويفكر طلباً للحق حتى أدركه الموت أثناء نظره، فإنه لا يكون
كافراً يستحق الخلود في النار عند الله .

فإن هذا ليس محل الخلاف بين مذهب الجمهور ومذهب هذا الفريق
في الكافر غير المعاند، بل هو محل اتفاق بين الجمهور وهذا الفريق، لأنه
مات طالبا للحق ولم يصل إلى رأى قاطع، وليس هذا هو الذى يخالف فيه
هذا الفريق مذهب الجمهور، وإنما الذى يخالف فيه الجمهور هو من نظر
واجتهد فإدعاء اجتهاده في حياته إلى الكفر الصريح، وهذا هو الذى لم يشر
الشيخ محمود شلتوت إليه، مع أنه فيما نقلناه عنه يرى رأى هذا الفريق
الذى يفرق بين الكافر المعاند وغير المعاند .

وللبحث بعد هذا كله مجال فيمن هو المعاند؟ فهل هو الذى يعرف
الحق ولا يؤمن به ولو اقتصر على نفسه، فلم يحاول منع غيره من الإيمان
بوسيلة قهرية أو جدلية، أو الذى لا يقتصر على نفسه بل يحاول ذلك مع
غيره؟ ومما يفيد في هذا البحث خلاف الجمهور في أبى طالب عم النبى ﷺ
فقد ذهب بعضهم إلى أنه مات على شركه، ثم ذهب إلى أن حمايته للنبي من
المشركين تنفعه في أخراه، وتتجيه من عذاب النار إلى ما لا ينكر من
العذاب، لأنه يبلغ في خوفه إلى أبعد حد .

ولا يفوتنى بعد هذا أن أضيف إلى نقدى السابق للشيخ شلتوت نقدا
آخر لإخفائه نسبة ذلك الرأى إلى صاحبيه القديمين - الجاحظ والعنبري -
وهما من أعلامنا الأقدمين، ونسبته إليهما تجعل له قيمة أكثر من نسبته إلى
الشيخ شلتوت، وما كان هذا ليخفى عليه وهو رأى مشهور درسه وهو طالب

فى كتاب مشهور من كتب علم أصول الفقه. وإن كنا على عهد الطلب لم ندرك قيمة هذا الرأى فى عصرنا، لما كان يحيط بنا من الجمود الدينى والفكرى، فمر علينا فى ذلك الكتاب كما مر غيره من مسائل علم أصول الفقه، ولم ندرك مدى ما وصلت به سماحة الإسلام إلى حد لا يوجد فى غيره من الأديان، ولم ندرك أن الإسلام يصل به إلى أن يكون أسمح دين لبنى الإنسان* انتهى كلام الشيخ عبد المتعال الصعدي .

وما يمكننا إضافته - على طريقتنا فى تقديم الامتشاف بالقرآن واستخلاص الأحكام منه، إن نقول أن القرآن يتضمن للعديد من الآيات التى تؤيد حرية العقيدة وتتقبل الأديان وتدع الاختلاف فيها إلى الله .

من هذه الآيات ...

□ ﴿إن الذين آمنوا والذين هادوا والنجاري والصائبين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ . {١٢ البقرة}

□ ﴿وقالت اليهود ليست النصارى على شئ وقالت النصارى ليست اليهود على شئ وهم يتلون الكتاب كذلك قال الذين لا يعلمون مثل قولهم فالله يحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون﴾ . {١١٣ البقرة}

□ ﴿قل آمننا بالله وما أنزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى والنبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون﴾ . {٨٤ آل عمران}

□ ﴿ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين. إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم وتمت كلمة ربك لأملن جهنم من الجنة للناس أجمعين﴾ . {١١٨-١١٩ هود}

□ ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ اللَّهُ. وَإِنَّا وَإِيسَاكُم لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ. قُلْ لَا تَسْتَلُونَنَا عَمَّا أُجْرِمْنَا وَلَا نَسْتَلُكُمْ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ . {٢٤ - ٢٥ مآ}.

□ ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مِمَّا عَبَدْتُمْ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينٌ﴾ .

{١ - ٦ الكافرون}

وتحدث القرآن الكريم عن اليهود والنصارى حديثاً منصفاً، يمثل الحياد والنزاهة التامة مما كان يمكن أن يكون درسا في الموضوعية والأنصاف، ففي الوقت الذي ندد فيه بتعصب وإصرار اليهود، فإنه اعترف بما لدى البعض منهم من فضائل فقال ..

□ ﴿وَمَنْ أَهْلُ الْكِتَابِ مِنْ أَنْ تَأْمَنَهُ بَقِنطَارٍ يُؤَدُّ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَنْ تَأْمَنَهُ بدينارٍ لَا يُؤَدُّ إِلَيْكَ إِلَّا مَا زَلَّتْ عَلَيْهِ قَائِمًا، ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذْبُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ . {٧٥ آل عمران}

□ ﴿لَيْسُوا سَوَاءً، مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ أَنْسَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ وَيُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ. وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾ . {١١٣ - ١١٥ آل عمران}

□ ﴿وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ. وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا لَوْلَا أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ . {١٩٩ آل عمران}

□ ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَسِيصِينَ

ورهبانا وأنهم لا يستكبرون. وإذا سمعوا ما أنزل إلسى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون ربنا آلمنا فاكنتنا مع الشاهدين) . {المائدة ٨٣}

واستغرب القرآن أن يدعوا اليهود الرسول ليحكم بينهم فقال :
□ (وكيف يحكمونك وعندهم التوراة فيها حكم الله) . {المائدة ٤٣}

وتحدث عن الإنجيل ..

□ (.. فيه هدى ونور ومصدقا لما بين يديه من التوراة وهدى وموعظة للمتقين) . {المائدة ٤٦}

□ (.. وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه، ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون) . {المائدة ٤٧}

وكان توجيه القرآن للحكم على الآخرين أولهم، أن يترك ذلك لله. وأنها أم قد خلت لها ما كسبت "ولا تسألون عما كانوا يفعلون. وإن الله أعلم بمن يضل عن سبيله" ...

وقال القرآن بصريح العبارة ..

□ (يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا أهنتهم) ^(١)
{المائدة ١٠٥}

□ (تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون) . {البقرة ١٣٤}

(١) لقد لللبس معنى هذه الآية على بعض الصحابة وظنوا أنها تتسخ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حتى بين لهم الرسول أنها عن النصارى واليهود، ويبدو أن هذا التفسير لم يصل إلى جميع الصحابة فوجد في عهد أبى بكر من يقع في اللبس حتى بينها لهم (أنظر مسند الإمام أحمد بن حنبل) .. (الفتح للربانى) ج ١٨ ص ١٣٤ .

□ ﴿قُلْ لَا تَسْأَلُونَ عَمَّا أُجْرَمْنَا، وَلَا تَسْأَلُ عَمَّا يَظُنُّونَ﴾ . {٢٥ سبأ}

□ ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ اهْتَدَى﴾ ..

{٣٠ النجم}

□ ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ .

{٧ القلم}

ونحن لا نعلم على وجه القطع هل أرسل الله تعالى إلى أهل الصين والهند واليابان رسولا أم لا، ولكننا نعلم يقينا أن الله تعالى قال ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى تَبْعَثَ رَسُولًا﴾ {١٥ الإسراء}، ومن ثم فإن من الخطأ الحكم بأن اتباع بوذا وكونفوشيوس وهم - أضعاف المسلمين والمسيحيين واليهود - في النار (١) .

ولما كانت السنة مبينة للقرآن ومطبقة لتوجيهاته فإن الرسول ما أن وصل المدينة حتى وضع وثيقة وحد فيها بين كل من يسكن المدينة وأعتبرهم "أمة دون الناس" لليهود دينهم والمسلمين دينهم* وأن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم، وأن بينهم النصر على من حارب هذه الصحيفة، وأن بينهم النصح والنصيحة والبر دون الآثم للخ..(٢)

وهناك أثر له دلالة عميقة هو ما جاء في مشكاة المصابيح، مرويًا عن عبد الله بن عمر قال كنا نسير مع النبي ﷺ في بعض غزواته، فمر بقوم فقال "من القوم" قالوا نحن المسلمون، وامرأة تحصب (أي توقد) بقنرها ومعها لبن لها فإذا ارتفع وهج نتحت به فأنت النبي ﷺ فقالت "أنت رسول الله؟" قال نعم قالت "بابي أنت وأمي أليس الله أرحم الراحمين" قال "بلى" قالت

(١) حقا إن الله تعالى قال "وإن من أمة إلا خلا فيها نذير" (٢٤ فاطر) ولم يقل رسول.. فإذا كان بوذا وكونفوشيوس ينطبق عليهم وصف نذير فإنهم يكونون حجة على أقوامهم خاصة عندما تتفق القيم التي يدعون إليها مع القيم الإسلامية .

(٢) تاريخ السيرة النبوية لأبن هشام ص ٢٤٩ ج ٢ .

"إن الأم لا تلقى ولدها في النار" فأكتب رسول الله ﷺ بيكى ثم رفع رأسه إليها فقال "إن الله لا يعذب من عباده إلا المارد المتمرد الذي يتمرد على الله وأبى أن يقول لا إله إلا الله" رواه ابن ماجه (١) .

فهل هناك تعددية دينية دون حساسية مثل هذه.. ولماذا لا يقبل المسلمون اليوم ما قبله الرسول نفسه عندما دخل المدينة، ولا يذهبون إلى ما ذهب إليه مما هو أقرب إلى رحمة الله ؟ ..

* * *

ومنذ أن كتب الرسول وثيقة المدينة، وقال إن الأنبياء أخوة علات وأن الأديان هي "البيت الكبير" الجميل لولا ثغرة فيه، جاء الإسلام ليسسدها، ومنذ أن قال "نحن أولى بموسى منهم" وقد نزل جبل صرى من الرسول إلى أفراد من المسلمين آمنوا بتعددية الأديان وأخوة الأنبياء، ولعل أبرزهم هو ابن عربي في أبياته المشهورة :

لقد كنت قبل اليوم أنكر صاحبي	إذا لم يكن ديني إلى دينه داني
وقد صار قلبي قابلاً كل صورة	فمرعى لغزلان وبيت لأوثان
ودير لرهبان وكعبة طائف	والواح تسورا ومصحف قرآن
أدين بدين الحب أنى توجهت	ركائبه فالحب ديني وإيماني

ومن ابن عربي أنقل الحب إلى ابن الفارض الذي قال في تقيية السلوك :

وإن نار بالقرآن محراب مسجد	فما بار بالإنجيل هيكل بيعة
وإن عبد النار المجوس وما أنطفت	كما جاء في الأخبار في ألف حجة
فما قصدوا غيري وإن كان قصدهم	سواي وإن لم تكن أفعالهم بالمديدة

(١) مشكاة المصابيح - المكتب الإسلامي - بيروت ج ٢ ص ٧٣٥ .

وقال هذا الحبل كامننا حتى بعثته يفضلة الفكر الإسلامى فى العصر الحديث، فأعاد شوقى الفكرة فى ثوب قشيب :

رب شقت العباد لزمان لا	كتب بها، يهتدى ولا أنبياء
ذهبوا فى الهوى مذاهب شتى	جمعتها الحقيقة للزمراء
فإذا لقبوا لها قويا	قله بالقوى إليك لفتاء
وإذا أثروا جميلا بتنزيه	فإن الجمال منك حباء
وإذا أنشأوا التماثيل غرا	فأليك الرموز والإيماء
وإذا قدروا الكواكب لربابا	فالمراد الجلالة لشماء
وإذا يعبد الملوك فإن الملك	فضل تحبوه به من تشاء
وإذا تعبد البحار مع الأسماك	والعاصفات والأنواء
وسباع السماء والأرض والأرحام	الأمهات والآباء
لعلاك المذكرات عبيد	خضع والمؤنثات إماء
جمع الخلق والفضيلة سر شفاف	عنه الحجاب فهو ضياء

وقد لا تتبر هذه الأبيات دهشة لشفاافية روح الصوفى والشاعر، ولكن الذى يثير الدهشة أن يجدها بالفاظها تقريبا لدى فقيه يمثل لفته الشيعى وهو أكبر وأشهر آيات الله فيه إلا وهو آية الله العظمى الإمام الخمينى الذى روى عنه ..

على بوابة الخان
والمعد والمسجد والدير
وقعت منهارا فى سجود
كأنك ترمقتى من هناك^(١) .

(١) أنظر عند مجلة التوحيد (طهران - قم) الخاص بالتعددية فى الإسلام (مرجع سابق) ص ٨٧ .

الفصل الرابع

الحكمة أصل مسكوت عنه من أصول الإسلام يقرر الانفتاح والتعددية

يعجب الإنسان كيف فات على الأئمة الأعلام أن يجعلوا من الحكمة أصلاً من أصول الإسلام ومصدراً من مصادر الفقه. بعد أن ذكر القرآن الكريم الحكمة مراراً وتكراراً، وقرنها بالكتاب .

أغلب الظن أنهم عزفوا عن الاعتراف بأصل ومصدر مفتوح غير محدد أو منضبط، يسمح بالانفتاح والتعددية، وهي صفات يضيق بها الفقهاء عادة، لأنها تفتح عليهم باباً لا يمكنهم التحكم فيه .

وقد ذكر القرآن الكريم الحكمة في آيات عديدة منسوبة إلى الرسول ومقتزنة بالكتاب مثل :

- {ويعلمهم الكتاب والحكمة} . {١٢٩ البقرة}
- {ويعلمكم الكتاب والحكمة} . {١٥١ البقرة}
- {وانكروا نعمة الله عليكم، وما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة يعظكم به} . {٢٣ البقرة}

□ «وانذكرون ما يتلى فى بيوتكن من آيات الله والحكمة. إن الله كان لطيفاً خبيراً» . {٣٤ الأحزاب}

□ «هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياتهم ويذكهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين» .

{٢ الجمعة}

وكان إيراد القرآن للحكمة بهذه الصفة مما دفع بالشافعى لأن يذهب إلى أن الحكمة هى السنة، لأنه ليس للآيات من تلويل إلا هذا، وهو أمر كان يمكن قبوله لولا أن القرآن الكريم استخدم كلمة الحكمة فى آيات أخرى كثيرة بمعنى ينفى أن يكون المقصود بها السنة. فقد أتى الله داود الحكمة .

□ «وقتل داود جالوت وأتاه الله الملك والحكمة وعلمه ما يشاء، ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو الفضل على العالمين» . {٢٥١ البقرة}

□ «وشددنا ملكه وأتيناه الحكمة وفصل الخطاب» . {٢٠ ص}

كما أتاهما "الحكمة" لقمان :

□ «ولقد آتينا لقمان الحكمة أن أشكر الله. ومن يشكر الله فإنيما يشكر نفسه، ومن كفر فإن الله غنى حميد» . {١٢ لقمان}

كما أتاهما عيسى :

□ «ويعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل» . {٤٨ آل عمران}

□ «ولما جاء عيسى بالبينات قال قد جئتكُم بالحكمة ولأبين لكم بعض الذى تختلفون فيه فاتقوا الله وأطيعون» . {٦٢ الزخرف}

بل أتاهما النبيين :

□ (وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة، ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه قال أقررتم وأخذتم على ذلكم إصري قالوا أقررنا قال فاشهدوا وإنا معكم من الشاهدين) .

{٨١ آل عمران}

كما تكلم عن الحكمة بصفة مجرد :

□ (يؤتى الحكمة من يشاء، ومن يوت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا، وما يذكر إلا أولوا الألباب) . {٢٦٩ البقرة}

□ (ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة) . {١٢٥ النحل}

□ (حكمة بالغة، وما تغني النذر) . {٥ القمر}

إزاء هذه الآيات التي تجعل الحكمة جزءا من رسالة الرسل وشريعة للكتاب، يكون علينا أن نرد على سؤال ذي شقين: الشق الأول هو ماذا يعنيه القرآن بتعبير "الحكمة"؟، والثاني هو لماذا ذكر الحكمة جنباً إلى جنب الكتاب ولم يقتصر على الكتاب وحده ..

لعل أقرب تعيين لمعنى الحكمة في القرآن هو العقل الخبير والقيم العليا، والعلم الهادي الذي يستبعد الخرافة ويحول دون أن يضل المؤمنون ..

وقد يلقي بضوء على هذا أن الله تعالى وصف نفسه في آيات كثيرة بأنه "حكيم" أو عزيز، وفي مواضع قليلة "خبيرا" .

كما قد يعيننا أن نعلم أن "الحكم" وليس هو ببعيد في الاشتقاق اللغوي من كلمة "حكمة" يراد به "القضاء" أو سياسة أمور الناس، وهي كلها تحتاج أول ما تحتاج إلى الفطنة والكياسة ومعرفة طبائع الأشياء وأصول الشريعة.

والسنن التي يسير عليها المجتمع.. وهي في إجمالها لا تخرج عما أشرنا إليه من المعرفة، والعلم والخبرة .

يعزز هذا أيضا النصوص المتواترة والمتعددة في القرآن عن البحث على التفكير وإعمال العقول والتدبر فيما خلق الله ولوجده من آيات وسنن والتعرف على آثار الحضارات القديمة وما تركوه من جنات وعيون السخ.. وأدل على هذا ما جاءت به الآية ٣٧ من سورة الرعد (وكذلك أنزلناه حكما عربيا، ولئن اتبعت أهواءهم من بعد ما جاءك من العلم، مالك من الله من ولى ولا واق). فنجد هنا الجمع ما بين القرآن والحكم والعلم في سياق واحد

ومن ناحية أخرى، فمن المعروف أن الحكمة ترادف كلمة "الفلسفة" وأن "الفيلسوف" إنما هو "محب الحكمة" وقد فهم أين رشد الحكمة للتي ذكرها القرآن بمعنى الفلسفة .

وجاء في مقل لأحد الباحثين عن معنى الحكمة (١) ..

إن معانى الحكمة التي حددها اللغويون والمفسرون الإصباحة فى القول والفعل، ومعرفة أفضل الأشياء بأفضل العلوم، أو هى العقل، والعلم والفهم، والمصلحة، والموعظة، والفلسفة، أو المعرفة بالدين والفهم فيه، والنبوة، والفقه، أو هى بحسب الطبرسى فى كتابه "مجمع البيان فى تفسير القرآن" العلم الذى تعظم منفعته وتجل فائده، وإنما قيل للعلم حكمة لأنه يمتنع به عن القبيح لما فيه من الدعاء إلى الحسن والزجر عن القبيح .

ومهما قيل أو يقال فإن الحكمة لا تخرج أبدا عن معنى السداد والصواب، ووضع الشيء فى موضعه قولا وعملا فالحكيم هو الذى يحكم

(١) أنظر مقالا للدكتور إبراهيم العالى مدير الدراسات والبحوث - الجامعة الإسلامية (لندن) فى جريدة الحياة بعنوان ما بين الحكمة والشرية: الحق لا يضاد الحق، بل يوافقه ويشهد له. (الحياة ٢٠٠١/١/٦) .

الشيء، ويأتى به على مقتضى العقل الواقع لا بحسب الميول والرغبات ولا يستعجله قبل أوانه أو يمسك عنه فى زمانه أو ينحرف به عن حدوده وقبوده كما يذكر محمد جواد مغنية فى كتابه "التفسير الكاشف" .

والتعريفات التى قدمها فلاسفة الإسلام للحكمة لا تختلف فى جوهرها عما سبق ذكره، فهى عند الكندى "علم الأشياء بحقائقها بقدر طاقة الإنسان، لأن غرض الفيلسوف فى عمله إصابة الحق، وفى عمله العمل بالحق" (راجع رسائل الكندى الفلسفية)، والأمر نفسه نجده عند الفارابى وابن سينا .

أما ابن رشد فلعله خير من فصل العلاقة بين الحكمة والشرعية، وأثبت بما لا يقبل الشك أن الحكمة واجبة شرعاً وعقلاً. فهو يرى ابتداءً فى كتابه "فصل المقال" أن الحكمة أو الفلسفة لو تعمقنا معناها فهى ليست شيئاً أكثر من "النظر فى الموجودات من حيث دلالتها على الصانع، أعنى من جهة ما هى مصنوعات، فإن الموجودات إنما تكل على الصانع بمعرفة صنعها، وأنه كلما كانت المعرفة بصنعتها أتم كانت المعرفة بالصانع أتم" وهذا توجيه واضح إلى أن غاية الفلسفة فى النهاية الوصول إلى حقيقة وجود خالق لهذا الكون، ولا أترى هل توجد للدين عموماً، وللإسلام خصوصاً، غاية أجل وأسمى من ذلك " أ هـ .

نقول إننا وإن كنا نتفهم تفسير ابن رشد للحكمة فإننا نؤثر التعريف العام - أى العقل والعلم والفهم وإدراك روح الإسلام ومقاصده وقيمه. لأن الفلسفة قد تثير معنى اصطلاحياً يحصر الحكمة فى مناهات علم الكلام ويركز الاهتمام على ذات الله تعالى - كما عند المعتزلة - وكان أخرى بهم أن يستخدموا الحكمة فيما يحقق الخير للمجتمع والناس وما يصلح الأوضاع الاقتصادية والسياسية وينقلها إلى عالم الحياة الدنيا الذى تكون مفيدة وفعالة فيه، وليس إلى عالم الغيب وذات الله تعالى فضلاً عن أننا نهينا عن تقصيصه

وعملها فإن اعتبار الحكمة هي الفلسفة وعكوف للفقهاء عليها أدى إلى إفساد الفلسفة، وإفساد الدين معا .

أن هذا التفسير لمعنى كلمة "الحكمة" التي تردت في القرآن الكريم كأصل من أصول رسالة الأنبياء يعيننا في الرد على الشق الثاني من السؤال، وهو لماذا ذكر القرآن الحكمة جنباً إلى جنب القرآن. ولم يقتصر على الكتاب وحده ؟ الرد أن الكتب السماوية سواء كانت قرآناً أو إنجيلاً أو توراة هي بالدرجة الأولى كتب هداية، وقد تضمنت أصول وقواعد ومبادئ هذه الهداية، ولكنها لم تتضمن تفاصيل جزئيات ذلك. كما لم تتناول جوانب أخرى عديدة تزه بها الحياة الإنسانية، ولا يمكن أن يتضمنها كتاب واحد، وفي الوقت نفسه فلا يمكن تجاهلها أو إغفالها، فهناك الآداب من شعر أو نثر أو رواية، وهناك الفنون من تمثيل وموسيقى ورقص، وهذه الآداب والفنون تبلور العواطف والأحاسيس وما يجيش به القلب، وهناك الفلسفة وطرائقها في البحث وهناك قبل هذا كله، العقل الإنساني الذي يستبد به الفضول والاستشراف للمعرفة ونشوة الكشف عن الأفاق المجهولة، والتجربة.. بحيث يغير، ويبدل في حياة الناس وأوضاع المجتمع، ويكون ما أراده الله له - وحياً ذاتياً في نفس كل فرد يحمل النفثة الإلهية في الإنسان، ويبدع نماذج وتجليات للحكمة التي تعزز الدين وتكمل نقصه، وتحقق للحياة الإنسانية الثراء، والوفرة، والتعددية، وتربط ما بين القديم والجديد، الشرق والغرب اللغة العربية وغيرها من اللغات .

ولعل الله تعالى وهو العليم بذات النفوس لم يشأ للمسلمين أن يوغلوا فيما وجههم إليه القرآن من تقوى وورع بحيث يحيف هذا على حق الحياة الدنيا وما تتطلبه من مقتضيات فتذهب حياتهم الدنيا بدعوى الحرص على الحياة الآخرة والله تعالى يريد التوازن وأن لا يفقد المسلمون حياتهم ووجودهم الدنيوي فنص على الحكمة بجانب الكتاب وأورد ذلك في الكتاب نفسه حتى لا يظن ظان أن الأخذ بها (أي الحكمة) يخالف الكتاب. لأن الله

تعالى أراد بجانب التدين الأخرى نوعاً من التدين الدنيوى، بل أنه اعترف بما تنزع إليه النفوس بحكم طبيعتها، ولم يأت الإسلام لقمع الميسول والعواطف، ولكن للحيلولة دون أن تستبد الشهوات بالناس فلا يعنوا إلا بها.

ونحن لا نستبعد أن ينتهى هذا المنهج إلى ما قد يجافى الحكمة نفسها، والميل إلى بعض ما تهوى إليه الأنفس، ولكن لا يدق على من يتعمق فى الأمور أن يرى أن هذا إنما أريد به توقي شر أعظم. ونحن نرى فى حياتنا اليومية أن الإغراق فى العبادة وشدة الحرص على تجنب صغائر الذنوب قد أضاع على المسلمين حياتهم الدنيوية، وجعلهم يشقون على أنفسهم ويلزمون بها لا يلزم، ويهدرون فى سبيل ذلك ما هو أجدى. وأنه أفقد فيهم حاسة الأولويات وواقع التعدديات. هذا كله فضلاً عن أن معالجة الأوضاع لا يمكن أن تتم بتجاهل ما تتضمنه من جوانب قد لا تروق لنا.. إذ لا بد من الاعتراف بها والتعامل معها تعاملًا موضوعيًا علميًا، أى بالحكمة، وليس بالتجاهل أو بالقمع .

ولو اقتصر الله تعالى على ذكر الكتاب دون ذكر الحكمة لكان ممن المحتمل أن يتعسف فهمه وتفسيره فئات من الناس لو أن يتخّنوا منه أداة تحقق لأرب خاصة، واتجاهات معينة وإضاقت مجالات الحياة بالإنسان ووقعوا فى قبضة "كهنوت" يعسر لا ييسر ويغلق لا يفتح ويضيق لا يوسع، وهذا هو ما حدث للأسف الشديد، عندما تجاهل العلماء "الحكمة" فحرموا الفكر الإسلامى الإفادة من ثمار الحضارات البشرية، قديمة وجديدة شرقية، وغربية. فحجروا واسعا، وحبسوا أنفسهم - والإسلام - فى دائرة مغلقة .

إن "ثورة المعرفة" فى العصر الحديث وتدققها من أربعة أركان العالم ووصولها عبر المطابع والتقنيات الفضائية والإنترنت وخدمات التصنيف وضع تحت أيدى الباحث كل كنوز العالم القديم، وكل مستجدات العصر الحديث بحيث أصبح "الكتاب" أى القرآن يمثل دليل العمل والإطار

العريض للخطوط الرئيسية، أما ما يملأ الحياة فهي هذه العلوم والفنون والمعارف التي تتدفق فيما يشبه الفيضان من كل الدول المتقدمة. وأصبحت رمز ثروة وقوة العصر الحديث. ومن هنا تتضح حكمة الله تعالى في النص عليها مرجعاً وأصلاً من أصول الإسلام لأنها هي أداة التعددية والانفتاح والإفادة من كل معارف العالم وهي بعد، ما يحقق العزة والمنعة والقوة للمسلمين .

وقد طبق الرسول توجيه القرآن عندما قال "الحكمة ضالة المؤمن أنا وجدناها فهو أحق بها"، وقال "اطلبوا العلم ولو في الصين"، ووجه أصحابه لتعلم اللغات وأخذ باقتراح سلمان شق الخندق الخ ..

واليوم تنفض دعوة الإحياء الإسلامي الغبار من على الحكمة، وتعيدها إلى ما أرادها الله تعالى شريكة للكتاب في الرسالة.. وتتهل من كل معين للحكمة. من علوم، وفلسفة، وآداب وفنون دون حرج لأنها أصل نص عليه الكتاب كمصدر للإسلام، كما أنها ليست إلا تجليات للفكر الإنساني وما أودعه الله فيه من قوى تتوصل بها إلى الحقائق، وتتصوّل، وتجدول في مجالات الإبداع الإلهي المعجز وتفيد منه وتثري الحياة به، وتمعد للقلوب والعقول، وتسد الحاجات - فلا تكون فاقلة مادية ونفسية - ولا احتكار للمعارف ولا سبود قائمة تحول دون الإفادة من ذخائر الحضارة الإنسانية ..

الفصل الخامس

التعددية في مجتمع إسلامي

تعود الإشارات الكثيرة التي أوردناها عن التعددية في القرآن الكريم إلى وجود أصل رئيسي لها هو التصور الخاص للإسلام لما يكون عليه المجتمع البشري الذي أشرنا إليه إشارة موجزة في مقدمة هذه الرسالة، ولما كان المجتمع الإسلامي جزءا من المجتمع البشري - حتى وإن كان له خصائصه المميزة - فإن ما يقال على المجتمع البشري يصدق بدرجات متفاوتة على المجتمع الإسلامي .

ولما كان المجتمع يضم ملايين الأفراد وآلاف الهيئات فلا بد من وجود التعددية بحكم الأمر الواقع من ناحية، ولأنه من ناحية أخرى لا يمكن لأى هيئة أن تستوعب الحقيقة. فالحقيقة أكبر اتساعا، وأكثر عمقا وأشد تعقيدا وتعميقا من مدارك فرد واحد أو هيئة واحدة. فالقصور البشري يحول دون ذلك، وغلبة الذاتية على الفرد الواحد أو النظرة الواحدة تجعلها لا ترى إلا بعدا واحدا من أبعاد الحقيقة وتؤثر على أحكامها، وتجعلها بعيدة عن الموضوعية. ويمكن بالطبع لفرد أو هيئة أن تمسك بشعبة من الحقيقة، أما أنه، أو أنها تستطيع الإحاطة بالحقيقة فهذا ما لا يمكن. وما يعنى أن لم يعد للأخريين فكر أو رأى أو مجال، وهو اختزال لمجتمع يناقض الطبائع

الاجتماعية ولا يعنى - فى النهاية - إلا فرض ديكتاتورية عشوية تقوم على الظلم وتنتهى بالفشل .

ومن الطبيعى أن تستتبع هذه التعددية وجود الاختلاف وقبوله لا على أساس أنه ضرورة سيئة ولكن على أساس أنه جزء لا يتجزء من بيئة وكيان المجتمع، لا يمكن أن يقوم بدونه. ولما كانت تلك النقطة قد تبدو جديدة على الكثيرين ممن تتقفوا ثقافة إسلامية تقليدية واحدة، فقد رأينا أن نبسط القول فيها فى النبذة التالية .

قضية الاختلاف والائتلاف فى المجتمع الإسلامى :

الائتلاف والاختلاف هما قوام كل مجتمع، بما فى ذلك المجتمع الإسلامى.. فالمجتمع كالنسيج الذى يكتسب تماسكه وقوته من تلاقى اللحمة بالسدى. ومن تقابل الخطوط العرضية بالخطوط الطولية. والحقيقة أن الائتلاف والاختلاف لا يقتصر على المجتمع، فهما موجودان فى الكون كما أنهما موجودان فى الفرد، وداخل كل واحد منا تدور معارك وتحدث حروب لا يراها أحد ولا يحس بها صاحبها ما بين كرات الدم البيضاء والميكروب الذى يغزو الجسم ويصيبه بالأمراض، وهناك عمليات تتم فى جزء من ثانوية غاية فى الدقة والتعقيد الكيمائى والكهربائى لتحويل الهواء إلى دماء وفرز الطعام وهضم ما يريده الجسم وطرد الزائد عنه الخ.. فالفرد الإنسانى كائن معقد، متعدد وأن كان هذا يتم فى إطار الكيان الفردى للفرد ولو عُدت الخلايا التى تعمل داخله كما لو كانت جنودا لأشبهت جيشا جرارا يضم الملايين .

فإذا كان هو شأن الفرد، فإن هذا الفرد ما أن ينشئ أسرة حتى تتضخم المسؤوليات، وتتعدد الائتلافات والاختلافات ما بين شخصه، وشخص زوجته، فإذا جاء الأبناء أضيف عامل جديد... وهذا كله بالنسبة

لأصغر دائرة من دوائر المجتمع وهى الأسرة.. ولنا أن نتصور حجم الائتلافات والاختلافات فى الوطن الذى يضم ملايين للعائلات والأسر ..

من هنا فإن التسليم بالائتلاف والاختلاف فى المجتمع، والالتزام بأدابه هو الضمان لأن لا يتحول الاختلاف الذى هو جوهر التعددية إلى خلاف هو جوهر الأحادية.. فالاختلاف يحتمل للرأى الآخر.. ولكن الخلاف يضيق بالرأى الآخر، وبالتالي يسد المنافذ والطرق أمام التعددية لينتهى إلى سيادة الرأى الواحد.. ونعتقد أن هذا من أكبر المخاطر التى تتعرض لها التعددية فى المجتمعات الإسلامية لأنها عادة حديثة عهد بالحرية. والكثير منها يؤمن بالإسلام "قولا واحدا" وأن الحق هو ما يراه هو، والآخر نوع من الضلال. فإذا لم يلتزم الجميع بأداب الاختلاف ويؤمنوا أن الاختلاف فى الفكر لا يثير حفيظة ولا يقتضى عدوة بل إنه أمر مطلوب لأن الحقيقة أعظم من أن يستوعبها رأى واحد. وأن كان كل واحد يمكن أن يمسك بشعبه منها، وأن هذا لا يثير عدوة، ولا يبعث على التنديد بالآخرين، وأن الفكر والمجتمع هو غير الحساب والرياضة لا يعنى الاختلاف فيه الخطأ والصواب بالمعنى الرياضى، وإنما هو النظر إلى بعد من أبعاد الحقيقة لم ينظر إليه الطرف الآخر أو التركيز على جانب لم يعطه للفريق الآخر حقه، وهذا لا يعنى أن يتضارب فريق مع الآخر أو يتناقض معه ولكنه يكمله .

إن الذين يرون - كالمودودى - أن المجتمع الإسلامى الأمثل هو المجتمع الذى لا يوجد فيه إلا إمام واحد. وفكر واحد وحزب واحد يقودون اتباعهم إلى نفق مظلم، ويؤخنون بفكر نظرى يناقض طبيعة الأشياء ولو قدر لهم الانتصار لجنوا على بلادهم أعظم الجنايات، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا .

وهؤلاء لا يختلفون فى شئ عن جماعة أخرى تقيم مجتمعا أحاديا لأن حديثا الله أعلم به يقطع بأن فرقة واحدة هى الناجية من الفرق السبعين التى ستختلف عليها الأمة ...

وما على هذا تبني النظم وتستخلص الأحكام ..

ويعطى ما جاء فى القرآن الكريم تحت مادة "اختلاف" دلالات ثمينة تناقض الانطباع السائد، لأنها ترى أن الاختلاف ظاهرة طبيعية يقوم عليها الكون والمجتمع والفرد. فليس مر السنين إلا نتيجة لاختلاف الليل عن النهار ورأى القرآن فى هذا الاختلاف آية تنير للفكر (إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب). وهو معنى مكرر فى عديد من الآيات كما تتمايز العناصر والشعوب (ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم). ورأى فى اختلاف الألوان جمالا فى الطبيعة، والثمرات والجبال، وجعل للناس شعوبا وقبائل لتعارفوا

ورأى القرآن الكريم أن الاختلاف فى المجتمع هو أمر لا مخلص عنه، وأن الاتفاق أمر مستبعد، أن لم يكن مستحيلا، وأن محاولة فوضى رأى معين على الآخرين يثير العناد ويدفع للتمسك بالرأى الآخر ويصيب العلاقة بسم العدواة.. ولهذا فإنه أحال البت فى هذا الاختلاف إلى الله تعالى يفصل فيه يوم القيامة. وهو ما يغنى الفرقاء عن الصراع والكفاح والعمل بكل وسيلة لحمل الآخرين على التسليم لهم .

وكان هذا هو الحل الأمل فما دام الاختلاف قائما وما دام المطلوب هو أن لا يثير هذا الاختلاف العدواة والبغضاء والنزاع والخصام، فلا مفر من إيكال الأمر إلى الله تعالى يفصل فيه يوم القيامة .

ومراجعة مادة "اختلفوا" فى القرآن توضح ذلك كما يلى ..

□ (ثم إلى مرجعكم فأحكم بينكم فيما كنتم فيه تختلفون). (٥٥ آل عمران)

□ (إلى الله مرجعكم جميعا فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون) .

(٤٨ المقدمة)

- «ثم إلى ربكم مرجعكم فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون» .
{الأحكام ١٦٤}
 - «الله يحكم بينكم يوم القيامة فيما كنتم فيه تختلفون» . {الحج ٦٩}
 - «قال قد جئناكم بالحكمة ولأبين لكم بعض الذي تختلفون فيه» .
{الزخرف ٦٣}
 - «فإن الله يحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون» . {البقرة ١١٣}
 - «ولولا كلمة سبقت من ربك لقضى بينهم فيما فيه يختلفون» .
{يونس ١٩}
 - «إن ربك يقضى بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون» .
{يونس ٩٣}
 - «ليبين لهم الذي يختلفون فيه .. » .
{النحل ٣٩}
 - «وإن ربك ليحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون» .
{النحل ١٢٤}
 - «ومهما اختلفتم فيه من شيء فحكمه إلى الله ذالكم ربي عليه توكلت وإليه أنيب» .
{الشورى ١٠}
 - «إن ربك هو يفصل بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون» .
{السجدة ٢٥}
 - «إن الله يحكم بينهم في ما هم فيه يختلفون .. » . {الزمر ٣}
 - «أنت تحكم بين عبادك في ما كانوا فيه يختلفون» . {الزمر ٤٦}
- وشمة لغته هامة أشار إليها القرآن أكثر من مرة بالنسبة للاختلاف، تلك هي أن هيمنة البغى هي التي تجعل الاختلاف أمرا سيئا ..

□ «وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغيا بينهم»

{البقرة ٢١٣}

□ «وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيا

بينهم». {١٩ آل عمران}

وأقرب المعانى إلى ما أراده القرآن الكريم بتعبير "بغيا بينهم" هو السلطة التى هى بطبيعتها مفسدة ويغلب دائما أن تفرس بذرة البغى، وبدون هذا لا يحتكم الاختلاف أو يتحول إلى عدوة، والتاريخ السياسى فى المجتمع الإسلامى شاهد على هذا. فأفضلية الإمام على كرم الله وجهه على أبى بكر أو عمر كان يمكن أن تكون اجتهادا نظريا صليبا، أو خاطئا. ولكن عندما أصبح له مضمون سياسى وسلطوى تسبب فى انشقاق الأمة. كما أن فكرة خلق القرآن كان يمكن أن تعد حلقة فلسفية أو ترف فكرى. ولكن عندما آمن بها الحاكم واتخذها مذهباً مقررأ فى الدولة أنتهى باضطهاد المخالفين وجلد الإمام الجليل أحمد بن حنبل .

فإذا كان القرآن قد أقر الاختلاف، ووكّل للفصل فيه إلى الله تعالى يوم القيامة، فإن السنة أيضا أقرت الاختلاف عندما ارتأى الرسول أن للمجتهد المصيب حسنتين (أو أجرين)، وللمخطأ حسنة (أو أجر) فثاب المجتهد الذى يخطئه التوفيق، فإذا كانت حسنة التوفيق قد أخطأته، فإن حسنة الاجتهاد لم تفته. وهذا أقصى ما يمكن أن يصل إليه الاعتراف بالتعددية وبحرية الفكر لأنه يجاوز إطار الإقرار إلى درجة التشجيع. كما أن الرسول أقر الاختلاف فى جانب هام له قداسته الخاصة وهو قراءات القرآن. فقد صعب على بعض قبائل العرب النطق بلغة قريش فى بعض الآيات ونطقوها بطريقة مختلفة فأجاز الرسول لهم ذلك ما دام التعبير مقصورا على طريقة النطق بالكلمة دون مساس بمعناها، وأن التطور سيقضى على هذه الاختلافات الأتية، وكان هذا هو الأصل فى تعدد القراءات القرآنية .

ومعلوم جيدا أن الصحابة كانوا يختلفون في فتاويهم، وأن هذا لم يؤثر أبدا على مشاعر المودة والتقدير المتبادلة. وورث التابعون هذه الصفة عن الصحابة، كما ورثها تابعوا التابعين.. ولم يثر الاختلاف عداوة إلا عندما ارتبط - فيما بعد - بالسلطة .

ولم يجد الصحابة والتابعون حرجا في اختلافهم، وكانت وشائج التقدير والحب تربط بين الذين جمعهم وقت واحد مثل مالك والشافعي والليث ومحمد بن الحسن الخ.. وكان بعضهم يأخذ في - بعض المناسبات - ببعض ما ذهب إليه الآخرون وكانوا جميعا يهون الناس عن أن يقلدوهم ويأمرؤنهم بأنعام النظر والتدبر .

وقال للقاسم بن محمد - أحد أئمة المدينة السبعة - "لقد نفع الله باختلاف أصحاب محمد ﷺ في أعمالهم لا يعمل العامل بعمل رجل منهم إلا رأى أنه في سعة" وقال عمر بن عبد العزيز "ما يسرنى أن أصحاب محمد ﷺ لم يختلفوا لأنهم إذا اجتمعوا على قول فمخالفهم ضال، وإذا اختلفوا فأخذ رجل بقول هذا ورجل بقول هذا كان في الأمر سعة" .

وقد حفظ لنا التاريخ أمثلة للاختلافات ما بين الأئمة، ونملأج ربودهم مثل :

١. الرد على سير الأوزاعي لأبي يوسف يعقوب بن إبراهيم .
٢. الرد على أبي حنيفة لأبي بكر بن أبي شيبة ضمن كتابه المصنف .
٣. الرد على محمد بن الحسن الشيباني للإمام الشافعي .
٤. بيان خطأ أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري في تاريخه لأبي محمد بن أبي حاتم الرازي .

٥. كشف الأوهام التي في كتاب "المدخل إلى الصحيح" الذي صنّفه
الحاكم النيسابوري لعبد الغنى الأزدي .

٦. بيان الوهم والإيهام الواقعين في كتاب الأحكام لعبد الحق الاشبيلي
لأبن القطان .

٧. إصلاح غلط أبي عبيد في غريب الحديث لأبن قتيبة الدينوري .

٨. ما دار بين الليث بن سعد إلى مالك بن أنس من مكاتبات تكشف عن
الآداب الجم والتقدير المتبادل .

وهذا قليل من كثير ..

ومعروف أن الإمام مالك بن أنس رفض أن يكون كتاب "الموطأ" هو
المرجع الوحيد في الأحكام عندما أراد ذلك الخليفة أبو جعفر المنصور. كما
أنه (أي الخليفة المنصور) رفض ما اقترحه ابن المقفع في رسالة الصحابة
تقنين الفقه أو الأخذ بإحدى وجهات النظر الفقهية. وقد حاول عمر بن عبد
العزیز شيئاً من هذا من قبل، وكان ذلك في أصل فكرته عن تدوين السنن،
ولكن الطبيعة التعددية المنفتحة للمجتمع الإسلامي حقبة النهضة والفتوة
والنقمة في النفس كانت أقوى من أن تستسلم للقيود أو الضوابط، وظل
الاجتهاد سارياً حتى أدى إلى نوع من اللبلة في الأحكام في البلد الواحد. في
الوقت الواحد. وكان المفروض أن يوجد نوع من التنظيم وإطار من
الضوابط - لأن الضوابط مما لا مناص عنها في أي عمل اجتماعي - ولكن
فتوة المجتمع الإسلامي وقتئذ استعصت على ذلك، وكان الحل المؤسف فيما
بعد هو إغلاق باب الاجتهاد والافتصار على المذاهب التي أثبتت رسوخها،
ويلحظ أنه حتى في هذه الحالة فإن التحديد لم يأخذ شكل الوحدانية ولكن
بالإضافة إلى المذاهب الأربعة، فإنه ضم المذاهب الأخرى كالأثنى عشرية

فى إيران والزيدية فى اليمن والاباضية التى يؤمن بها البعض فى عمان.
كما أن مذهب الطبرى ودلود الظاهرى (ومعه ابن حزم) أى الظاهرية .

• • •

بالإضافة إلى هذه الضرورية الأصولية للاختلاف فى المجتمع، فقد
كان هناك عاملان أدبا إلى التعددية فى مجتمع إسلامى هما هداية الأنبياء،
وغواية الشياطين ..

أ. هداية الأنبياء :

إنه لمن الطبيعى فى مجتمع يؤمن بدين ما، أن يكون الدين هو أكبر
عامل فيه. فهداية الأنبياء هى محور هذا المجتمع. وهذه الهداية لا
تأخذ شكل للوحدية فى المجتمع، ولكن التعددية، كما أثبتنا ذلك فى
الفصول السابقة عن إشارات القرآن إلى التعددية وعن قبوله لتعددية
الأنبياء، وأن داخل إطار المجتمع الإسلامى تتعدد الاجتهادات
وتتباين الآراء وتظهر المذاهب، وإن كانت هذه التعددية تسلوى فى
النهاية إلى إطار فسيح وإلى أصل مكين هو الإسلام ونحن فى غنى
عن أن نكرره هنا، لأن المقصود هو الإشارة إليه، كعامل بارز من
عوامل التعددية أما شرحه وتبينه والبرهنة عليه فهذا ما تضمنته
الفصول السابقة .

ب. غواية الشياطين ..

العامل الثانى الذى يؤدى إلى تعددية تختلف عن التعددية السابقة فى
إنها قد تشط حتى تجاوز إطار السمات الإسلامى هو غواية الشيطان

فقد خلق الله تعالى الإنسان من "طين" ليتلاءم مع تربة الأرض التى
سيعيش عليها وضرورتها الملزمة ونفث فيه من روحه ليتمكنه - إذا أراد -

من السمو إلى سماوات القيم ووجهه عقلاً يميز به ما بين الخطأ والصواب
وقلباً يهديه إلى الخير دون الشر. ولكن الله تعالى العليم بالإنسان وما
توسوس به نفسه - رأى أن هذا كله لا يعصم الإنسان من الانحراف أو
ليثار اللهو واللذة والمتعة على العمل والقصد والاعتدال. دعم الإنسان بهدوية
الأنبياء الذين عرفوه المعرفة الحقة - على الله تعالى، وعلى ما يحدث
للإنسان بعد الموت وهو ما يعجز العقل عن الوصول إليه ..

واقترضت إرادة الله وحكمته البالغة أن يكون هناك محك للإيمان،
ولمدى عمقه أو سطحيته في نفوس الناس، فمن أسهل الأشياء الإدعاء أو
النظام. ولذلك جعل الله تعالى "العمل" مصداقاً للإيمان فالإيمان دون عمل
يظل ادعاءً حتى يثبت - أو ينفى - العمل ..

ولكن هذا العمل يحتاج بدوره إلى محك يكفل دوامه ويثبت صموده
أمام الشهوات وما تهوى الأنفس .

أن الملائكة لا تتعرض للإغواء، وإيمان هؤلاء الملائكة لاشك فيه.
كما أن عملهم هو التسبيح والتهليل وكان يمكن أن يكونوا أفضل من البشر،
ولكن الله تعالى أراد للمجتمع البشري أن يكون شيئاً آخر غير مجتمع
الملائكة، أراد له أن يتعرض للإغواء - كأقوى ما يكون الإغواء - ثم
ينتصر على هذا الإغواء بفضل الإيمان وبهذا الانتصار فضل للبشر على
الملائكة الذين لا يتعرضون لأى إغواء ..

وقد أشار القرآن إلى هذه القوة للفعالة في المجتمع البشري بما فيه
المجتمع الإسلامى" فى عديد من الآيات بصورة صريحة، وجازمة ووصلت
إلى الدرجة التى يمكن أن يقال فيها إن الله تعالى أعطى للشيطان كرات
بلاش" كما يقولون أو حتى أمره بها، وزاد له من السلطة ليقوم بدوره فى
غواية الإنسان وأن هذه السلطة التى تضم المجالات العديدة التى نكرها

القرآن متبقى وستستمر إلى يوم الساعة، وكان القرآن يريد أن يقول إنها عنصر دائم وبق، ولا يمكن للمجتمع البشرى أن يتحرر منه إلى يوم الساعة

ولقرا مثلاً ..

□ «وإذ خلقناكم ثم صورناكم، ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس لم يكن من الساجدين» . {١١ الأعراف}

□ «قال ما منعك ألا تسجد إذ أمرتك قال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين» . {١٢ الأعراف}

□ «قال فاهبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيها فأخرج إياك من الصاغرين» . {١٣ الأعراف}

□ «قال أنظرني إلى يوم يبعثون» . {١٤ الأعراف}

□ «قال إنك من المنظرين» . {١٥ الأعراف}

□ «قال فيما أغويتني لأقعن لهم صراطك المستقيم» . {١٦ الأعراف}

□ «ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين» . {١٧ الأعراف}

□ «قال أخرج منها مذموماً مدحوراً لمن تبعك منهم لأملأن جهنم منكم أجمعين» . {١٨ الأعراف}

□ «وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس قال أسجد لمن خلقت طيناً» . {٦١ الإسراء}

□ «قال لربك هذا الذي كرمت على لئن أخرتن إلى يوم القيامة لأحتكن نريته إلا قليلاً» . {٦٢ الإسراء}

□ «قال أذهب فمن تبعك منهم فإن جهنم جزاؤكم جزاء موفوراً» . {٦٣ الإسراء}

□ «واستفزز من استطعت منهم بصوتك وأجلب عليهم بخيلك ورجلك وشاركهم فى الأموال والأولاد وعدهم وما يعدهم الشيطان إلا غرورا» .

{الإسراء ٦٤}

□ «إن عبادى ليس لك عليهم سلطان وكفى بربك وكيلًا» . {الإسراء ٦٥}

لقد كانت قضية "الشر" وجوده فى المجتمع من المسائل التى شغلت الفكر الدينى من أقدم العصور حتى لقد قامت لديان على أساس وجود إلهين إله للخير، وإله للشر أو إله للنور، وآخر للظلام، وهذا لكبر دليل على قصور الفهم البشرى عندما يتصدى لقضية الألوهية فهو يجعلها نوعاً من السجال بين قوتين لن يسفر بالطبع إلا عن صراع. فى حين أن الفرض الذى قدمه الإسلام هو الحل الأمثل فقد أبرز الشيطان - ما بين الحقيقة المادية والمجاز النظرى - كرمز للشر الذى يتأتى بالدرجة الأولى من الاستعلاء والأثرة والأنانية وغلبة الذات عندما رفض السجود لآدم بحجة أنه خير منه «خلقته من نار وخلقته من طين» وأن هذه للطبيعة فيه قد دفعت له لإغواء آدم، ومن ثم فإن الله تعالى ترك له هذه المهمة التى خلق لها أو التى اختارها، ولم يخش على المؤمنين لأن هداية الأنبياء تحصنهم من هذه الغواية، وفى الوقت نفسه فإن هذه الغواية، وما ستأخذه من صور وممارسات تثير فى نفوس الصادقين قوة المقاومة فيزدادوا إيماناً، أما من هم دونهم فأمامهم درجات عديدة من السلوك التى يخطئون فيها عملاً حسناً بعمل سيئ، وقد لا تقوتهم التوبة بعد الندم، فإذا استسلموا تماماً أو حتى تمادوا فإنهم يكونون مثلاً مروعاً يردع المؤمنين من أن يتردوا فيه. ولم يكن هناك مناص من هذا كله. لأن الشر على سوته كان لازماً لكى تبرز خصيصة الخير، فبضدها تتبين الأشياء كما فطن إلى ذلك الشاعر، ومن هنا كان لابد من وجود الشيطان، ولابد من أن يقوم بدوره الرجيم، ما دام الله تعالى قد أراد للحياة الإنسانية أن تكون دار ابتلاء واختبار وأن يقوم المجتمع

على أساس الحرية والاختيار، ولهذا يكون أقل نقاء من مجتمع الملائكة. الأمر الذى جعل الملائكة تعجز عن فهم حكمة استخلاف الله لهذا المخلوق، ولكن الله تعالى يعلم ما لا يعلمون .

وأوضحت آيات عديدة أن لا أحد يفلت من غواية الشيطان حتى الأنبياء أنفسهم، بل لقد بدأت الحياة الدنيا نتيجة لغواية الشيطان الأولى لآدم ثم تواصلت هذه الغواية مع ظهور الأنبياء فقال: «وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنىلقى الشيطان فى أمنيته، فينسخ الله ما يلقي الشيطان ويحكم الله آياته والله عليم حكيم» {٥٢ الحج} ..

وتحدث القرآن عن أخطاء للأنبياء فى غير ما كلفوا بتبليغه فقال عن آدم «فمنسى ولم نجد له عزما» وعن سليمان «ولقد فتنا سليمان والقينا على كرسيه جسدا» وقال عن يوسف «ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه» وروى عن موسى «قتلت نفسا فتجبناك من الغم وقتناك فتونا» وقال عن ذى النون «وذا النون إذ ذهب مغاضبا لربه ظن أن لن نقدر عليه» وقال عن محمد ﷺ «ووضعنا عنك وزرك الذى لنقض ظهرك» «وان كادوا ليفتنوك عن الذى أوحينا إليك لتفتري علينا غيره، وإذا لاتخذوك خليلا. ولولا أن ثبتناك لقد كنت تركن إليهم شيئا قليلا إذن لأنتفك ضعف الحياة وضعف الممات ثم لا تجد لك علينا نصيرا»^(١). {٧٣ - ٧٤ الإسراء} ..

ولم ينف الأنبياء أنفسهم ذلك فكلهم مثل يوسف «وإلا تصرف عسى كيدهن أصب إليهن ولكن من الجاهلين» فالأنبياء جميعا محفوفون برعاية الله وهذه الرعاية تجعلهم ينتصرون على الشياطين، ولكنهم بدونها يصبحون كبقية البشر. وقد قال النبي إن الشيطان يسرى من الإنسان مسرى الدم، وقال إن لكل واحد شيطان فلما سأله "حتى أنت يا رسول الله" أجاب

(١) لا نجهل ما تذكره كتب التفسير عن هذه الآيات. لكن نلاحظ الكلمات والسياق بأبها. وليس الأنبياء بعد معصومين لولا رحمة الله لهم وفضله عليهم .

بالإيجاب ولكن الله تعالى نصره عليه - فلا يتصور، والأمر هكذا أن يخلو مجتمع بشرى - إسلامى أو غير إسلامى من غواية الشيطان لأنه فى النهاية مجتمع بشرى وليس مجتمع ملائكة (١)

بل لو أخذنا بالقياس فإن أعظم ما يفترض أن يقوم به الشياطين يكون فى مجتمع إسلامى، لأن مهمة الشياطين هى فتنه المؤمنين .

ولبرزت الآيات المجالات التى يمكن للشيطان أن يؤتى الإنسان منها وهى المال، والنساء، بالإضافة إلى السلطة التى تعود بذرتها إلى الأناثية والكبرياء، والاستعلاء، والزهو، وحب السيطرة الذى يتجلى عادة فى مجال الحكم، ويفسده .

وطبقا لهذا لا يكون مستغربا أن تظهر صور عديدة لممارسات خضعت للشيطان فى مختلف الحالات. فظهر الاستبداد فى السياسة، والتفارق فى الثروات ما بين الذين يتضورون جوعا والذين ينتفخون ثراء، ويلوث النفاق والكذب الأقوال والأفعال وتظهر "الكاسيات العاريات" ليس فحسب على الشواطئ، ولكن فى شوارع المدينة، وتنتشر دور السينما، والمصارح، والملاهى، وتروج الصحافة الصفراء، وروايات الجنس والغرام الخ ..

ولا يتصور مجتمع بشرى لم يمارس فيه الشيطان مهمته فى هذه المجالات، ونرى شواهد لها فى كل المجتمعات، والفرق بين المجتمع

(٢) لقد ثار التساؤل عن مصير الشيطان فى اليوم الآخر، فهو فى نفسه للناس وإشاعته المنكرات إنما كان يعمل برخصة من الله، وإن كان بالطبع قد أخطأ خطأ فاحشا عندما رفض إطاعة الأمر بالسجود، ولكنه ما كان يمكن أن يعصى الله خارقا إطار القدرة الإلهية. ومع أن الحديث عن هذا هو مما يخرج عن إطار الموضوع، وما ننصح دائما بتجنبه باعتباره يتعلق بالمشيئة الإلهية، وأنه من الغيب الذى لا يكون لنا ما نقوله عنه إلا ما يقوله القرآن، ولكن لعل الله تعالى أعطانا إشارة عندما خلقه من نار، وعندما ما يقذف به فى النهاية فى النار ليسلوب وينتهى .. من النار بدأ، وإلى النار يعود ..

الإسلامي وبقية المجتمعات البشرية أن المجتمع الإسلامي لديه من القوى
الإيمانية والخبرة ما يحد من مدى فجور وانتشار هذه الموبقات وأن يصمد
بدرجات متفاوتة أمام هذه المهالك والمخريات .

وكان من نكاه الشيطان أن أخفى عن المسلمين القدامى والمحدثين
أهمية ومنزلة الحكم، والآثار المدوية لإفساده بحيث لم تكن محل ملاحظة
وتعقب المصلحين، قدر ما ضخم من أهمية آثار الاقتتان بالمرأة، وضرورة
العمل بكل الطرق للحيلولة ما بين المجتمع الإسلامي وهذا البلاء المستطير .

وكان هذا الموقف هو الذي سمح لمعاوية بأن يحول الخلافة الراشدة
إلى ملك عضوض، مع حرص المجتمع على الوقوف من المرأة موقفا ظن
أنه الموقف الإسلامي وكان هذا دليلا لا يدحض على غفلة المجتمع
الإسلامي وتخلف تقديره، واختلال الموازين في وقت مبكر جدا، ولأسباب
عديدة لا يتسع المجال لتفصيلها، ليقضى الله أمرا كان مفعولا وتحقق نبوءة
الرسول عن تحلل عرى الإسلام عروة عروة "قلولها الحكم وآخرها الصلاة"

ونحن لا ندين الأسلاف فقد كان هناك أسباب عديدة أدت إلى هذا
الموقف ولكن ما نرى أنه يستحق اللوم هو موقف الفقهاء المعاصرين الذين
كان عليهم أن يروا ما دق على أسلافهم، أو أن يتحرروا من قوى الرواسب
التي تحكم في الأسلاف .

فما قيمة الضرر الذي تحننه امرأة ترقص وهي ترتدى زيا يكشف
أكثر مما يحجب أمام قرارات حاكم مطلق يذل ويتحكم في معارضييه. على
الأقل إن إساءة المرأة لن تلحق إلا بأفراد جاعوا بمحض إرانتهم، بل دفعوا
أجرا للدخول لكي يشاهدوا هذه المنكرات ..

وما قيمة مسرح أو مرقص يصنخب رواده ويرقصون أو يشاهدون
أفلاما جنسية إزاء وضع يقضي باستغلال العمال وتشغيلهم ساعات طويلة

نتهك صحتهم لقاء أجور هزيلة لا تفي بحاجة الأقواء الجائعة، أو يستخدم وسائل الاحتكار والغش لمضاعفة أرباحه .

إن مجرد وجود المشاهد التي تثير الأغراء يختلف عن الوجوب الذي يتضمنه أى قرار سياسى فوجود مشاهد الفتنة والأغراء لا يقوى وحده على جذب المشاهد، لأن عددا كبيرا من العوامل قد يحول دون تلك من صلابة، أو مشغولية، أو خوف الخ.. ولكن قرارا سياسيا يصدره الحاكم يطبق فوراً وعلى جميع من ينطبق عليهم هذا القرار، حتى لو كانوا كل المواطنين، وقد يجعل الأغنياء أكثر غنى، والفقراء أكثر فقراً وقد يشل الحريات ويفرض الخوف والرعب والإرهاب على الناس ويمتهن الكرامات ويقهر النفوس، كما يحدث فى معظم نظم الحكم فى الدول الإسلامية قديماً وحديثاً .

إن الرسول عندما رأى أعراباً فى أسمال "أحمر" وجهه كأنما فقى فى وجهه حب الرمان" لأن مشاهدة هذه الأسمال يثير الخجل، ولم يستعد الرضا إلا بعد أن خطب وانهاالت عليهم الملابس من كل حذب وصوب ولكن الإسلاميين المحدثين لا يستشعرون خجلاً أمام مظاهر الفاقة المدقعة.. وإنما يحسونه أمام امرأة عارية ..

وهكذا فإن غواية الشياطين لا بد وأن توجد فى المجتمع الإسلامى صوراً من التعدديات والممارسات المخالفة والنابية عن أدب الإسلام سواء كان فى شهوات الجنس أو دعوات للثراء والاستزادة من المال. أو للنظم التى تسخر الجماهير لخدمة الحاكم وتفرض حكم القوة.. ويفترض أن يكون لدى المسلم الكياسة واللفطنة للتمييز بينها على أساس خطورتها على المجتمع وأثرها الوبيلة وأن يمنح الأولوية لكل ما يمس الحكم، ويتلوه ذلك ممارسات الإثراء والتكاثر وأخيراً فتنة المرأة والجنس، وله بالطبع حق مقالومتها جميعاً بكل الطرق، أو التحصن من الوقوع فى شراكها وقد يجد فيها ما يستثير فيه التمسك بدعوته والحرص عليها.. وعليه فى الحالات التى يعجز فيها عن

ضبط نفسه ويتغلب عليه الضعف. أن يستترك هذا بالتوبة والاستغفار والقيام بالأعمال الصالحة التي تجب السيئات .

وهذا الأسلوب يختلف جذريا عن أسلوب الفقهاء في سد باب الذريعة ومحاولة حماية الفرد المسلم في "صوبا" تبعده عن المغريات، وقد عالجا تلك النقطة في كتابات عديدة وأوضحنا لأفضلية الأسلوب القرآنى وحيويته وفعالية على أسلوب سد الذريعة ..

* * *

وقد يقول قائل ما هي الحكمة التي أرادها الله تعالى من هذه "التمثيلية" فنقول هل هناك أروع وأعظم من إيجاد هذا المجتمع الإنساني العظيم الذي يضم المليارات كل واحد له شخصيته المنفردة، وله اهتماماته الخاصة، وكل هذه الصور الرائعة، المتوهجة، من نشاط الناس فى أربعة أركان الأرض وأنشطتهم من صناعة وزراعة وفنون وآداب واكتشافات واختراعات ؟ أن المصور الذى يرسم أو النحات الذى ينحت مائة شخص مثلا كل واحد مختلف عن الآخر يعد عبقرى فما بالك بالذى يخلق بالفعل الملايين بل البلايين ويعطيها القوة والحياة والعقل والذكاء والعواطف والشهوات، والشخصية الخاصة. هل هناك أروع مما وصل إليه المجتمع أو أعظم من صور الجمال الذى توصلت إليه للفنون أو أدق وأعجب من أسرار الصناعة والإدارة والتنظيم التى تسير عجلة هذا المجتمع فى نعومة ويسر .

لقد أسلم الله تعالى هذه الأرض للإنسان فأضاف إلى جمالها السبرى الطبيعى جمالا حضاريا أضاء كل جنباتها بالنور وغرس فى تربتها الزهور وأقام على أرضها ناطحات السحاب والمصانع التى تصنع الطائرات والسيارات وأجهزة التلفاز والصورايخ التى تتطلق محررة لأول مرة من إسار الجاذبية الأرضية وتصل لأول مرة إلى كواكب أخرى غير الأرض.

وأقام الجامعات ومعاهد الأبحاث والمستشفيات ودور الفنون على اختلافها من موسيقى أو تمثيل أو سينما.. وهناك الملايين والملايين من البيوت فسي كل منها أسرة تستمتع بالدفء والحب والسعادة، وإذا كان هذا ليس حظ كل البشرية، وإنما هو مقصور على الدول المتقدمة، فليس هناك ما يقف أمام بقية الدول للوصول إلى هذه الدرجة كما قد يكون لدى هذه الدول من دين أو فكر أو قيم ما تفقده الدول المتقدمة ..

وعندما يجاوز التطور البشرى حده، ويبلغ غايته بحيث يظن الإنسان أنه أصبح سيد الكون عندئذ يؤذن الله تعالى بنهايته لأنه جاوز طوره وقدره، ومن رحمة الله أن هذه النهاية لا تعنى الفناء والعدم وإنما هي مقمه لعالم آخر يختلف اختلافا تاما عن عالم الحياة الدنيا عالم تتجلى فيه قدرة الله التي لا يحدها حد ولا يشوبها نقص .

فكيف لا يكون في هذا كله من بدأ الخلق حتى أعانته حكمة وغفيرة وروعة تأخذ بالآباب .

الفصل السادس

آليات ضبط التعددية

قد يبدو أن التعددية ليست فى حاجة إلى آليات لضبطها لأن طبيعة التعددية تسمح بكل التوجيهات والتيارات، وبهذا يمكن لكل ناسق أن ينتقد ولكل مصلح أن يصلح، فهى كالحرية تصلح أخطاءها وشططها بنفسها ولكن التجربة تعلمنا أن الآليات الطبيعية تتعرض لعوامل ذاتية عديدة تحولها عن غايتها أو توهنها، وما النقص فى الرأسمالية - وهى تطبيق الحرية فى الاقتصاد - إلا أنها اعتمدت كلية على آليات السوق وقوانينه كالعرض والطلب والمنافسة وغيرها التى ظهر أنها غير كافية .

كما دفعت الديمقراطية غالبا ثمن افتقار الضوابط إذ نشأت بين أعطافها الدعوات الشمولية التى أودت بها ولم ينفعها انفتاح تعدديتها أو انفساح حديتها، لأن عملية الهدم أسهل من عملية البناء ولأن استهواء العواطف والشهوات أكثر تأثيرا من استهزاء العقل واستلهاج الحكمة. وتعلمنا المباريات الرياضية ضرورة وجود "قواعد اللعبة" التى تحول دون انحراف اللاعبين، كما نجد لكل لعبة حكمها الذى يطبق هذه القواعد ويؤخذ كل من ينحرف عنها ولم يقل أحد إن قواعد اللعبة ووجود الحكم يضيقان من الحرية أو يعرقلان اللعبة. فالكل يجمع عليها دون استثناءات ذلك أن وجود قواعد

اللعبة واحترامها هو وحده الذى يكفل مضى اللعبة واستمرارها ونجاحها ويحول نون تعثرها وانحرافها .

من هنا فإن من المهم التثبت من وجود آليات لضبط المعالجات لا تعد حجراً على التعددية، ولكن تنظيمها لها حتى لا تسهر التعددية نفسها بنفسها أو ينتهى الأمر فيها إلى مجرد عرض الآراء. فإن الغرض من التعددية - فى النهاية - التوصل إلى أوضاع تحقق الأهداف المطلوبة ويكمل بعضها بعضاً، وبهذا يتحقق الوصول إلى الهدف وينتفى أن تتبدد الجهود سدى أو أن تحطم بعضها بعضاً، ولكى تظل المعالجة مستمرة لضمان حسن التطبيق أو علاج ما يكشف عنه التطبيق من مأخذ .

توفر درجة من الوعي السليم بالإسلام ..

للتعددية فى مجتمع إسلامى طابعها الذى يميزها عن التعددية فى مجتمع غير إسلامى. لأن الخصوصية تفرض نفسها، وتعد من مقومات الشخصية العامة وليس الغرض من التعددية طمس هذه "الشخصية" الإسلامية، أو المصرية التى تعد خصوصية أخرى ولا تتعارض للخصوصية الإسلامية مع الخصوصية المصرية، فهذه الأخيرة تقدم إضافة خاصة، وهما معا لا يتعارضان مع التعددية .

وبعد توفر قدر من الوعي الرشيد بالإسلام من العوامل التى ترشد للتعددية وتجنبها الانحراف نحو اتجاهات قد تكون سليمة موضوعياً، ولكنها غير مواتية فى مجتمع إسلامى أو مصرى أو أنها تؤدى إلى إذابة أو طمس لخصوصية تمثل إضافة وتمييزاً.. ويفترض أن يغرس الأبوان، وبصفة خاصة الأم بذرة هذا الوعي فى الأبناء. ثم تتوالى المدرسة ووسائل الإعلام بتوسيع إطاره، فما لم يفهم الإسلام فهما رشيداً مرناً متفتحاً. فقد يؤدى هذا

إلى فض التعددية، أو الضيق بها أو العمل على أن تأخذ لونا معيناً أو حداً أقصى لا تتجاوزه مما قد يحول دون ظهور التعددية أصلاً .

وما بين الخصوصية التي لا بد وأن تكون لتعددية في مجتمع إسلامي، وما بين العمومية التي تفترضها طبيعة التعددية الحرة التي لا تعرف حدوداً أو قيوداً يوجد موطأ القم الذي تقف عليه التعددية في مجتمع إسلامي / مصري، ويتفاعل من منطلق لا يضيق به الإسلام بل يمكن القول إنه إسلامي خالص هو حرية الفكر التي إن وصلت إلى الإطلاق في القول والكتابة فإنها عندما يراد تطبيقها لا بد وأن تصطدم بضرورات الواقع التي قد تكون من القوة بحيث تغلب من يغالبها .

ويحل الإشكال أن الإيمان ما دام صادراً من أفراد، وما دام يتبع الطريقة التي تملئها "قواعد اللعبة" أعني أن تكون بالحكمة والموعظة الحسنة فإن درجة من الإصلاح مستحقق وستتخلخل الصفوف العريضة للمعارضين وتتناثر الرواسب المذهبية، وستكسب الدعوة أنصاراً ومع مر الزمن، وبمواصلة الجهود سيتمكن التوصل إلى الانتصار في النهاية .

وفي الوقت نفسه فإن حرية المعارضين في عرض وجهات نظرهم في الحفاظ والاتباع وضرورة ملاحظة اعتبارات عديدة ستحول دون انزلاق آراء الذين يريدون الإصلاح والتحرر من إسار الماضي إلى درجة من الشطط التي لا يمكن التحكم فيها مما قد يؤدي إلى حالة من الفوضى والتحلل يمكن أن تنتقل من مجال الفكر إلى مجال العمل ويكون لها نتائج سلبية سيئة على اقتصاد وأوضاع البلاد وهو أمر غير مطلوب بالطبع .

وعندما يكون التعصب وضيق الأفق مسئولاً على جماهير غفيرة - كما هو الحال للأسف في معظم الدول العربية والإسلامية - فإن عملية التعددية ستكون شاقة وقد تتحول من السجال الفكري إلى العراك البدوي أو

التهديد بالقتل وليس هناك من حل "مشفى" جاهز، وقد يكون أقرب الحلول هو إبراز توجيهات القرآن الكريم (قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم إلا نعبد إلا الله، ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا أوليا من دون الله فإن تولوا فقولوا أشهدوا بأنا مسلمون) . (٦٤ آل عمران) ..

كما يؤدي إلى تقبل التعددية التعريف بأداب الائتلاف والاختلاف في الإسلام التي أشرنا إليها في الفصل السابق واستيعابها تماما .

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ..

بعد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر - أحد ضمانات التعددية لأنه ليس إلا ترخيصا بحرية الفكر وتأكيدا عليها إيجابا وسلبا - ولو أُنعم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لكان من المحتمل دخول منكرات لا عدد لها دون احتجاج أو نقد ولكان من الممكن لبعضها القضاء على التعددية نفسها، ولكان من الممكن أيضا أن لا يوجد المعروف، أو أن تكون ممارسته ممارسة سيئة دون أن يوجد من يصحح السقيم ويستكمل الناقص أو تكون القاعدة في هذا المجتمع هي "الانا مالية" "أنا مالي" ..

ولكن إساءة فهم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يمكن أن تجعل منه أداة لواء التعددية، أو الحيف عليها لا أن يكون ضمانا لها. عندما يتخذة أنصار النظرة الأحادية، وأصحاب شعار "قولوا واحدا" سلاحا يتأرا يسلطونه على كل صاحب نظرة مختلفة، وقد لا يتسبب عن هذا شر مستطير ما دام محصورا في إطار الفكر (أو اللسان - كما يشير الحديث المشهور) من رأى منكم منكرا فليغيره بيده، فإن لم يستطع بلسانه، فإن لم يستطع بقلبه وهذا أضعف الإيمان) ولكن يغلب أن ينتقل من إطار الفكر واللسان إلى مجال اليد والعمل لأن الحديث جعل الأولوية للتغيير باليد، وإنما جعل لللسان والقلب عند عدم الاستطاعة .

لقد جاءت صياغة الحديث الذى يعد عماد هذا التوجيه مختلفة عن صياغة القرآن. فهذه الأخيرة تقتصر على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فى حين أن الحديث يتضمن تغييرا لا مجرد أمر ونهى وحدد له ثلاث مستويات هى اليد، واللسان والقلب، ولا بد لاختلاف هذه الصياغة من مبرر.

فى نظرنا أن تضمن الحديث التغيير باليد إنما يراد به حالات معينة لا يكون فيها بديل آخر. فإذا وجد أحطنا فردا يحاول القيام بجريمة ما كان يشعل نارا فى بيت أو يضرب حيواتنا بقسوة.. أو حتى يحاول الانتحار عندئذ يصبح اللواذ باليد أمرا لا مناص عنه.. أما ما يورده الفقهاء عن سلطة للفرد على آخرين تعطيه حق التأديب كسلطة الأب على الابن والزوج على الزوجة، فهذا ما لا نفضل الخوض فيه تأسيسا بالرسول الذى ما ضرب أحدا قط، ولا خادما .

ونعتقد أن تفسير حديث "من رأى منكم منكرا.. لا بد أن يستصحب الآيات العديدة التى حدد الله تعالى للرسول طريقة التبليغ، وضرورة الاتصال عليه، والحذر من أن يامس لرقص المشركين. أو أن يحاول اكتساب الإيمان بمختلف الطرق. فمن غير المعقول أن يتصور أحد من عامة المسلمين أو خاصتهم أنه أكثر غيرة على الإسلام من الرسول، أو أن عليه أن يفعل أكثر مما وجه القرآن رسوله ..

ويلحظ هنا أن القرآن أكد هذا المعنى مرارا وتكرارا وأوضح للرسول ..

- ﴿إيس عليك هدام، ولكن الله يهدى من يشاء﴾ {البقرة ٢٧٢}
- ﴿إنك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى لمن يشاء﴾ {٥٦ القصص}

- «أفمن زين له سوء عمله فرأاه حسنا فإن الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء فلا تذهب نفسك عليهم حسرات إن الله عليم بما تصفون»
- {٨ قاطر}
- «أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين» {٩٩ يونس}
- وحدد القرآن للرسول ما يفعله عند إعراض من يدعوهم ..
- «وإن كذبوك فقل لي عملي ولکم عملکم. أنتم بريئون مما أعمل وأنا بريء مما تعلمون» . {٤١ يونس}
- «فلعلك تارك بعض ما يوحى إليك وضائق به صدرك أن يقولوا لولا أنزل عليه كنز أو جاء معه ملك إنما أنت نذير والله على كل شيء وكيل» {١٢ هود}
- «وإن ما نرينك بعض الذي نعدهم لو نتوفينك فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب» . {٤٠ الرعد}
- «فأصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين» . {٩٤ الحجر}
- «فإن تولوا فإنما عليك البلاغ المبين» . {٨٢ قتل}
- «نحن أعلم بما يقولون وما أنت عليهم بجبار فذكر بالقرآن من يخاف وعيد» . {٤٥ ق}
- «كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون، أتواصوا به بل هم قوم طاغون فتول عنهم فما أنت بملوم» . {٥٢ - ٥٥ الذرير}
- «والذين اتخذوا من دونه أولياء الله حفيظ عليهم وما أنت عليهم بوكيل» . {٦ الشورى}

« (أما من استغنى فإنت له تصدى وما عليك ألا يزكى) .

{ ٥ - ٧ عبس }

« (فذكر إنما أنت مذكر لست عليهم بمصيطر) . { ٢١ - ٢٢ الغاشية }

وهذه الآيات التي تقصر صلاحيات الرسول على التبليغ دون محاولة الهداية تقرر حق الآخرين في الرفض، وأرجاء حسابهم إلى الله تعالى يوم الدين، وتوجه الرسول لأن لا يستشعر غضاضة من ذلك أو يحس ضيقا لأن الله تعالى يعلم ما لا يعلمه من طبيعة النفوس التي جبلها الله، وأن الإلحاح في الوعظ أو الجذب قد يوجد أثرا عكسيا. في حين أنه لو ترك وشأنه فربما يعيد التفكير فيتوب ويتوب الله عليه وقد يعمل للكثير من الحسنات ليكفر عن سيئاته ويجعل الله تعالى سيئاته حسنات.. فضلا عما يعلمه الله من غيب لا يعلمه الرسول، فقد يكون لهذا الرفض مستقبل في الإيمان وخدمه الإسلام، وهل هناك من كان أشد عدواة للإسلام - في فترة ما - من خالد بن الوليد وعمر بن العاص، وقد أصبحا من قادة الإسلام الإعلام .

هذه كلها آفاق قد لا يلم بها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر خاصة إذا لم يكن عميق الخبرة بالنفس الإنسانية، وهي صفة قلما تتوفر لعامة الناس، وإنما تتوفر لديهم بدلا منها الحماسة والاندفاع. فهذه الآيات ترسم للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الموقف الأمثل بحيث يعرف أن دوره ينتهي بمجرد الأداء باللسان أو القلب. أما تطبيق التغيير باليد فلا يكون إلا في حالات الضرورة المحددة التي أشرنا إليها آنفا، وفي غير هذه الحالات تكون أي محاولة لتغيير المنكر باليد مجافية تماما لروح الآيات، ولن يكون الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أكثر حرصا على الإسلام من الرسول الذي كلفه الله بحمل رسالة الإسلام ولن تكون عاطفته أشد وحرصه على الهداية أعظم، ومع هذا فقد وجهه القرآن «وما عليك ألا يزكى...» .

فهذه الآيات هي التي تفسر طريقة فهم وتطبيق حديث تغيير المنكر وهي حاكمة عليه، وضابطة له لأن من عصر الأمور التفرقة ما بين النية الموضوعية الخالصة في التغيير، وما يمتزج بها امتزاج اللحم والدم مسن مشاعر شخصية، وانطباعات خاصة ورغبة في النهي والأمر والشخص والنتر" وهي تعود إلى الزهو والغرور، وهما من الموبقات، ومحلولة تلييس المعنى الخاص الثوب العام، وهي صورة من النفاق النفسى الذى يتطرق إلى النفس بأخفى من حبيب النمل ..

ومما يلفت الانتباه أن كل الكتابات التقليدية عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وتغيير المنكر باليد لتحصر في تدمير المعازف وما يمت بصلة إلى الموسيقى وتحطيم أواني الخمر وإلزام النساء بالنقاب والخمار الخ.. وقد استهلكت هذه المجالات الثلاثة جهود كل الكاتبين عن هذا الموضوع من الفقهاء القدامى حتى الكتاب المعاصرين، ولم يتحرك أمر بالمعروف أو إنهاء عن المنكر لمقاومة استبداد الحكام الطغاة.. ولم يفكر أحدهم في التنديد باستغلال الأغنياء للفقراء ووجود من لا يملك قوت يومه.. ومن يوجد لديه القناطير المقنطرة من الذهب والفضة، ولم يثر ثائر على الجاهالة والامية في حين أن أول كلمة في الإسلام كانت اقرأ.. وأن رسالة الإسلام كانت إخراج الناس من الظلمات إلى النور، وأنه عندما أراد أن يصم للعهد السابق عليه أطلق عليه "الجاهلية".

وهذه الاتجاهات بالإضافة إلى ما أشرنا إليه في الفقرة السابقة عن ادعاء الغضب لله والثورة لمحارمه ودخول العمل الذاتى في ذلك هو ما يوضح لنا أن الصورة في أذهان "الإسلاميين" سواء القدامى والمحدثين عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تختلف عما أمر به القرآن وطبقه الرسول . مما يوحى بأن ما يجاوز الأمر باللسان أو النية في القلب إلى ممارسة تغيير باليد منسوخ بنص الآيات القرآنية، باستثناء حالات

ونرى أن هذه صورة سقيمة لتطبيق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإن كانت وليدة طبيعية للمناخ المبعودي والفقه التقليدي (البعدي) المسائد فيها .

أما الصورة المثلى فيفترض أن تختلف شكلا وموضوعا. ففي الشكل تأخذ طبيعة جماعية وليست فردية، وذلك بتكوين الجمعيات والهيئات لذلك. لأن العمل الفردي، وأن كان له أهميته التي يحرص عليها الدين ويحميه من الأفتيات باعتباره ممثل الحرية الفردية الثمينة، والتي هي أساس كل الحريات. إلا أنه لم يعد - أي العمل الفردي - فعالا في عالم التنظيم والتهيج.. وأما في الموضوع أو المضمون فيجب التركيز على الأمر بالمعروف أكثر من النهي عن المنكر، ليس فحسب اتباعا للترتيب في الآية، ولكن أيضا لأن الإيجاب أفضل من السلب. ويغطي هذا المضمون مجالات مثل إشاعة الثقافة والمعرفة والإمام بالمهارات المطلوبة للمجتمع وتعليم الجاهلين، وقضايا العدالة الاقتصادية والتكافل الاجتماعي الخ.. وقد يؤدي ظهور هذه الجمعيات وحديثها في الدعوة إلى تكوين جمعيات معارضة، وبهذا تتحقق التعددية ويظهر الرأي والرأي الآخر ويتصارعان في مجال الفكر ويتحقق الثراء للقضية، ويظهر في النهاية الرأي الأفضل، حتى وأن لم ينفرد بالساحة لأن هذا يناقش طبيعة التعددية .

مقتضيات التعددية في المجتمع الإسلامي :

إذا أردنا من باب التحديد تعيين ما تستتبعه التعددية في مجتمع إسلامي قلنا إن أول قاعدة تنبثق منها التعددية نفسها هي الحرية كمنطلق لكل خطوة في النشاط الفردي والجماعي. وقد أوضحنا أن الإسلام - على خلاف ما يظن الناس أو يذهب إليه كثير من الدعاة - لا يتناقض مع فكرة الحرية كأصل والتعددية كمظهر وتطبيقه لها فإن توحيد الله لا يحتمل تأويلا ويستتبع التعددية في كل ما عداه، كما ذكرنا، والحرية لها ما يقابلها في "اللغة" الدينية

وهو مبدأ البراءة الأصلية وأن الأصل فى الأشياء الحل ما لم يرد بتحريمه
نص صريح من القرآن .

فضلا عما توصلنا إليه من أن الحكمة أصل من أصول الإسلام
يجب أن يستلهم عن وضع السياسات، وهى ما يبعد التعصب وضيق الأفق
والاقتصار على ما ورد فى الكتاب لأن النص عليها ولرد فى الكتاب نفسه .

ونطاق الحرية فى الإسلام فى مجال الفكر والاعتقاد لا يحده إلا
تحول ممارسة هذه الحرية إلى ممارسة قذف وسب أو جعلها وسيلة ابتزاز.
أما أى حرية تقوم على منطق وتستند على حجة فلا يجوز أن يوضع عليها
 قيد، وبالنسبة للحريات الاقتصادية والسياسية فإن التفظ الوحيد عليها هو
العدل حتى لا تتحول الحرية إلى استعباد الجمهور أو التحكم فى الشعوب .

والأخذ بالتعددية فى المجتمع يستتبع وجود صور من التعددية فى
المجال السياسى ككداول السلطة وحرية المعارضة وتقييد صلاحيات الحاكم
 بإرادة الشعب الخ.. وهى تستتبع فى المجال الاجتماعى ظهور منظمات
المجتمع المدنى وهيئات الإصلاح وكل ما يرى بعض الناس أنه جدير بأن
يعالج عبر هيئة تنظم هذه المعالجة وتعطيها طابعاً جماعياً كما يجب أن
تكون هناك صحافة حرة تماماً باعتبارها "رسالة" فكرية بحيث لا يجوز حتى
للمؤسسة الصحفية نفسها أن تحد من هذه الحرية أو تضع القيود عليها. كما
يفترض أن توجد المنظمات النقابية طبقاً لما يراه العمال أنفسهم باعتبار أنها
هيئات يؤسسونها بأنفسهم للدفاع عن حقوقهم ويدخل فى هذا كافة الحريات
النقابية التى نصت عليها الاتفاقيات الدولية .

وهناك المجال الحساس للفنون والآداب من شعر أو رواية أو قصة
أو تمثيل أو سينما أو موسيقى أو أغان أو رقص.. فكل هذه يجب أن ينظر
إليها باعتبارها وسيلة للتعرف على ملكات النفس الإنسانية، وما يمكن أن
تقدمه من عطاء وإضافة ونقد وإصلاح أو حتى إشباع لمواطف والاستمتاع

بلهو.. فهذه كلها يجب أن تكفل لها الحرية رغم ضيق كثير من الدعاة الإسلاميين الذين يرون في بعضها إشاعة للفحشاء.. وقد عالجتنا هذه النقطة عندما تعرضنا لأثر غواية الشياطين التي لا مخلص منها وقد أوضحت التجربة وطبائع الأشياء أن فرض الرقابات - كائنة ما كانت الحجة - يوجد مفسد أكثر من التي أريد تجنبها ومن ثم فلا يجوز أن يكون عليها رقابة إلا إذا وجد للرأى العام أن بعضها يمتن لمشاعرهم، ويطلب بالتدخل

ونحن نرى أن الخطأ المثلث أن يترك هذا المجال لأصحابه يتحملون مسؤولياته وتقع عليهم أوزاره، كما يستحقون أمجاده، أما الدولة فلا تتدخل، سلباً ولا إيجاباً وتتفرض يديها منه، وأما الفقهاء فلديهم مندوحة اعتباره انعكاساً للفجور الذى ألهمه الله تعالى النفس الإنسانية لو أنه حرث الدنيا ومتاع العاجلة الذى يتولى الحساب فيه الله تعالى يوم القيامة .

وفيما نرى، فإنه ما دام أصل التعددية - وهو الحرية - هو ما يتقبله الإسلام فإن التعددية ومقتضياتها لا تختلف فى المجتمع الإسلامى عما هى عليه فى المجتمعات الأخرى إلا فى المدى والدرجة وليس فى النوع أو الكيف. لأن الإيمان بالقيم الإسلامية يحول دون الجموح والشطط الذى تتصف به مقتضيات التعددية فى بعض المجموعات الأوربية الحديثة.. لأن المجتمع الإسلامى، وإن كان جزء من المجتمع البشرى الذى يخضع لقوانين عامة - فإنه مجتمع متميز له خصائصه التى ترتفع على الصفة العامة له. وأن لم تجرده منها ...

مع مكتبة الأحياء

- نحو فقه جديد
- فى ثلاثة أجزاء ..
- استراتيجية الدعوة الإسلامية فى القرن ٢١
- كما تراها دعوة الأحياء الإسلامى ..
- مطلبنا الأول هو الحرية ..
- تثوير القرآن ..

===== يصدر قريباً =====

الإسلام دين وأمة وليس ديناً ودولة
الكتاب الذى سيحسم قضية الحكم فى الإسلام .



ملحق

عن دعوة الإحياء الإسلامي

ملحق مع دعوة الإحياء الإسلامي ①

فكر وفقه دعوة الإحياء الإسلامي

أشرنا ببعض الإجمال إلى تميز دعوة الإحياء الإسلامي على غيرها،
وقد آن الأوان لبسط هذه الفكرة وإقامتها على قواعدها .

فالدعوات الإسلامية قد تدخل ميدان الإصلاح بفكر سلفي فلا تجدد
شيئاً. بل تفرض القديم على الجديد وتتمسك بما جاء به الفقهاء لأنهم لم
يتصوروا أبداً أن من الممكن الاستغناء عنهم، باختصار تريد أن تعيد المساعة
إلى الوراء، وتأبى طبائع الأشياء ذلك. ومن ثم فعلها كله مردود وليس إلا
صورة من التماحك مع العصر.. وقد تدخل لعلاج ناحية واحدة، ولما يمكن
تحقيقه لأن الناحية الواحدة مرتبطة ببقية النواحي ولا يمكن إصلاحها على
حدة، وقد تدخل الساحة حاملة شعاراً أخاذاً مثل "الحاكمية الإلهية" دون أن
تعنى بدراسة المضامين العملية له والوسائل التي يمكن بها تطبيقه وإثار
ردود الفعل الخ.. ولعل هذه الدعوات "الشعارية" أن تكون أخطر وأسوأ
الدعوات. وقد قتل أصحابها في القديم - الخوارج - بأيديهم الرجل الذي كان
الرمز الحقيقي للحاكمية - وهو علي بن أبي طالب - وأفسحوا المجال

لمعاوية الذى جاء بالملك العضوض. وقد تعنى بالتدين الأخرى على حساب التدين الدنيوى .

لقد ضلت هذه الدعوات .. وأضلت .

إن دعوة الإحياء شئ آخر. إنها تعود بالدرجة الأولى إلى العقل، بينما تعود كل الدعوات الإسلامية الأخرى إلى النقل. وعندما أعملت العقل أنهى بها إلى إيمان بالله يختلف عما جاء به علم الكلام الإسلامى. كما يختلف عن الموقف الأوربى السلبى الذى فضل أن يتجاهل أعظم قضية فى الوجود - قضية وجود الله - لأن العامة يمكن أن تستسلم إلى معيار الحواس، البدائى، الذى لا يعبر إلا عن طفولة العقل الإنسانى. فما دام الله غير محسوس لا يمكن أن نقاله الحواس، فلا داعى للتفكير فيه، أما الفلاسفة الذين كان عليهم أن لا يستسلموا لهذا الفهم السقيم، فإنهم فعلا توصلوا إلى فكرة وجود الله، ولكنها كانت فكرة غائمة أثرت عليها الفلسفة المادية الغالبة على الفكر الأوربى وحكمها القصور البشرى الذى يعجز عن أن يتوصل إلى الصورة المثلى لله، ولا بد أن يأتى بها وحى من السماء، ولما كانوا فلاسفة وليسوا أنبياء، فقد وقفوا فى منتصف الطريق .

وفى الوقت الذى رفض فكر الإحياء الإسلامى طريقة ومنهج علم الكلام، فإنه وجد طلبته فى منهج القرآن الكريم وتلقى العقل مع الوحي فى اعتبار أن القضية المحورية فى الإسلام (ويالطبع فى كل دين) هى الإيمان بالله. ومن أجل هذا جاء البند الأول من ميثاق دعوة الإحياء الإسلامى يبرز هذا الإيمان أولاً وقبل كل شئ. ويبرزه بالصورة العقلانية / القرآنية. ويعتبره نقطة البداية وواسطة العقد فى الإيمان الإسلامى الذى يغطى الكون كله وليس الإنسان الذى يعيش على كوكب من أصغر كواكب الكون ..

وهذه الصورة المميزة للإيمان بالله هى ما تميز دعوة الإحياء الإسلامى عن بقية الدعوات كافة.. لأوربية.. أو إسلامية.. وما يعطيها رشد الحياة وعمق الدين والتواصل مع الكون .

ومن خصائص دعوة الإحياء الإسلامى أنها لا تقتصر فى النظر إلى الدين على النظر إليه من داخله، كما تفعل بقية الدعوات الإسلامية فتقتصر نفسها فيه، ولا تعرف شيئاً عما سواه. إن دعوة الإحياء الإسلامى تنظر إلى الدين من خارجه أيضاً ^(١) بحيث ترى الصورة الكلية للدين فلا تضللها أحاد الأشجار عن الغابة، وهى تصطبج معارف من خارج الدين أيضاً. كما لا تفعل بقية الدعوات. ذلك لأن الحقيقة الكلية التى يمكن أن ترمز إلى الله لشبهه ببحيرة كبيرة ينبع منها نهر رئيسى هو الدين، كما ينبع منها أنهار أخرى أقل حجماً تحمل أسماء الفلسفة. العلوم، الفنون، والأدب، والاجتماع، والاقتصاد، وتاريخ الحضارات الإنسانية قديماً وحديثاً ونظم الحكم الخ.. وهذه جميعها تتبع من بحيرة واحدة، فإن كل نهر يحمل - بفضل مجراه الخاص. إضافة إلى المصب والإنسان وكل من يلم بما نأتى به هذه الأنهار ويعلم مضامينها فإنه يكون أقدر فهم الدين فعندما يتحدث الإسلام عن حرية الاعتقاد - فإن ما عرفه من تاريخ وحضارة ونظم الحكم وارتباطهما بالحرية سيعزز إيمانه بما جاء به الإسلام عن الحرية، وإذا علم تاريخ ووسائل استغلال المرابين للمدنيين، وكيف أن الربا كان يؤدى إلى استرقاق للمدين نفسه، فإن إيمانه بتحرير الإسلام للربا سيتأكد، وبالمثل فإنه عندما يعرف ما يؤدى إليه الاستئثار والاستبداد من الكوارث فإن تنديد القرآن بطغيان الحكام والقراعين سيدعم، وبهذا يكون إيمان المؤمن إيماناً بصيراً وليس أعمى، عميقاً وليس سطحياً. وانعدام معرفة الشيوخ والفقهاء بهذه المعارف واقتصرهم فى فهم الدين على الدين نفسه ووحده جعل إحساسهم بكل ما فى القرآن من قيم كالحرية والعدالة الخ.. ضحلاً وسطحياً. فهم يتحدثون باستمرار عن أن القرآن كرم بنى آدم، وندد بالاستغلال، ولكن هذا الكلام ليس له أى مضمون عملى لديهم، وهم أنفسهم يمتنون كرامة الإنسان ويمارسون الاستغلال لأن

(١) وسندنا "الشرعى" فى هذا هو أن القرآن الكريم قرن "الحكمة" بالكتاب كأصل من أصول الدين، ومن ثم فكل استهداء سليم ورشيد خارج الكتاب لا يعد شلوذاً عما أراد القرآن لأنه استلهم للحكمة الحق نصم عليها ..

المضمون العملى الذى هو روح كلامهم إنما يتعزز بفضل معرفة النظم السياسية فى العالم بأسره، وطرق الحكم وأنماط الحضارات وحركات الجماهير الخ.. وهم يجهلون هذا كله "لأنه يخرج فيما رأوا عن إطار العلم الدينى".

ومن هنا اتسمت دعوة الإحياء الإسلامى بالشمول والافتتاح الذى لا يطيعه، ولا يقبله / الذين حصروا أنفسهم فى "نصوص الأسلاف".

ولم يحدث أى فارق بين ما تقدمه العلوم والفنون والتاريخ الخ.. وما يقدمه الإسلام لأننا من البداية - وعلى نقىض مسلك الآخرين. عمدنا رأساً إلى القرآن الكريم. ولو أننا - أخذنا بكلام الفقهاء والمفسرين لوجدنا تعارضاً كبيراً.

إن دعوة الإحياء الإسلامى عندما انطلقت من القرآن رافضة الالتزام بكلام المفسرين ثراعت لها عظمة وروعة، وعبقورية القرآن وتفتحت آفاقه وعطاءه الذى لا يحد، وكانت تحجبه غشوات مجادلات التفسير. ومن ثم لمكن أن تستلهم معظم مبادئ وأصول دعوة الإحياء الإسلامى من القرآن الكريم نفسه، ووحده. وأن تعززها بشواهد التاريخ.

وقد وجد فقهاء دعوة الإحياء. أن نصوص القرآن الكريم عن كرامة الإنسان، وحرية الفكر، والمساواة مع المرأة، تزيد عما وضعت المعايير الدولية لها.

بعد هذا المنطلق القرآنى وجدنا أمامنا السنة، وهى مادة للفقه الإسلامى ولحمته وسداه، وإليها أكثر من القرن - يعود بناء الفقه الإسلامى والفكر الإسلامى عامة. وإليها ينسب الفقهاء معظم أحكامهم.

ولكن دعوة الإحياء الإسلامى لم تتقاصص، لو تستسلم فإبدعت تخريجين حلت بهما أزمة السنة المستعصية..

التخريج الأول: ضبط السنة بضوابط القرآن الكريم. وهذا ما لا يمكن أن يرفضه أنصار السنة نفسها، وفي الوقت، فإنه عند تطبيقه بالفعل (وهو الأمر الذي أحجموا عن ممارسته) قد يستعيد ربع أو خمس ما جاء في الصحاح .

وترفض دعوة الإحياء الإسلامي كل ما يوجه إليها من ادعاء "هل خفى ذلك عن البخاري ومسلم واستكثفتموه أنتم ؟ " وهي تراه نوعاً من الفرار من المقولة إلى القاتل وشكلاً من أشكال الإرهاب وتقديس الأسلاف الذي ندد به القرآن ﴿وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا﴾ .

نقول بلى، لقد نهياً لنا من وسائل البحث والتحصيل وبفضل شيوخ الثقافة والمعرفة ما لم ينهياً للسابقين، ومن للطبيعي أن نصل إلى ما لم يصلوا إليه، ولا يمس هذا في شيء إخلالهم وتقديسهم وتقواهم .

التخريج الثاني: هو أن كل ما قاله أو فعله الرسول خارج الإطسار القرآني إنما جاء بوحى سني، أريد به البقاء ما بقيت الدواعي والأسباب دون أن يكون له تأييد وحى القرآن .

ولم تبدع دعوة الإحياء الإسلامي هذه الفكرة أو تختارها من تلقاء نفسها أو بحكم هواها، ورغباتها ولكنها بنتها على مقدمات ثابتة هي :

١. أن القرآن الكريم أغفل ذكر تفاصيل عديدة سواء بالنسبة للشعائر من صلاة أو زكاة أو بقية فرائض الإسلام الخ.. وبالطبع فإن إغفاله هذا لم يكن نسيياً.. ﴿وما كان ربك نسيا﴾. ولا بد له من حكمة ..

وما نفهمه من هذا هو أن القرآن الكريم أراد للكليات الكبرى التأييد، أما تفاصيل هذه الكليات فلم يرد لها التأييد ولو أراد لذكرها .

٢. لما كان من الضروري تحديد هذه التفصيلات فإن القرآن وكل تبيانها للرسول (.. لتبين للناس ما نزل إليهم) .

٣. قام الرسول بهذه المهمة لا من تلقاء نفسه، ولكن طبقا لوحى سننى يختلف فى طريقته ومقتضاه عن الوحي القرآنى الذى كان له طبيعة مميزة ومقتضى صارم هو تبليغ النص القرآنى بحرفيته .

٤. فى الوقت نفسه فإن الرسول نهى عن كتابة حديثه، وأمر من كتب شيئا أن يمحوه. وهذه قضية ثابتة لا يجوز التماحك فيها. فإن التتوين لم يبدأ إلا على رأس المائة الأولى للهجرة على يدى عمر بن عبد العزيز .

ومتلول هذه الواقعة أن الرسول نفسه لم يشأ لما أمر به من تفاصيل صفة التأييد القرآنية، وبهذا التقى مع القرآن نفسه، وهو الأمر المنتظر.. فما جاء به الوحي السننى يظل ما دامت الأوضاع تتحمله، وتتجاوب معه فإذا لم يحدث وجب العودة إلى القرآن الكريم لاستنباط أحكام جديدة تتفق معه، ومع الأوضاع أيضا (لا يكلف الله نفسا إلا وسعها). دون أن يكون الداعى لهذا هو الهوى أو الاختيان .

وقد صرح بعض الفقهاء ومنهم السيد رشيد رضا، أن الصحابة رفضوا أن يجعلوا الأحاديث ديننا عاما ودائما كالقرآن. وذهبت إحدى فتاوى الأزهر أن السنة لا تستقل بإثبات الإيجاب والتحريم .

بل إن هذا هو ما صرح به الرسول ﷺ فى الحديث عن عوف بن مالك قال: خرج علينا رسول الله وهو مرعوب متغير اللون فقال: "أطيعونى ما دمت فيكم، وعليكم بكتاب الله عز وجل فأطوا حلاله وحرموا حرامه" وفى رواية "خطبنا رسول الله بالهجير وهو مرعوب فقال: "أطيعونى ما كنت بين أظهركم بكتاب الله أطوا حلاله وحرموا حرامه" هذا الحديث الذى اجتمع فيه أربعة من الصحابة يروى بعضهم عن بعض ينبئ بأن

الرسول استشرف أن المسلمين سيحلون السنة دون أن يكون موجودا ليظهر ما تطرق إليها من خطأ أو نسيان أو وضع محل القرآن الكريم فتملكه الكرب^(١) .

بهذين التخريجين لم تعد السنة عقبة فضلا عن أن دعوة الإحياء الإسلامي تجعل الرسول المثل البشرى الأعلى والأسوة لكل المؤمنين، وأنها تتمسك بما وضعه من تقاليد كرئيس دولة، وهو جانب يرى للفقهاء أنه ليس تشريعا^(٢) .

بهذين التخريجين لم تعد السنة عقبة فضلا عن أن دعوة الإحياء الإسلامي تجعل الرسول المثل البشرى الأعلى والأسوة لكل المؤمنين، وأنها – كما أشرنا إليه آنفا – تتمسك بما وضعه من تقاليد كرئيس دولة، وهو جانب يرى الفقهاء أنه ليس تشريعا .

* * *

بعد القرآن والسنة – وجدت دعوة الإحياء الإسلامي – أمامها التللال المتعالية، والمجلدات المتعددة من أحكام المذاهب وما وضعه الفقهاء على مدار ألف عام. ودعوة الإحياء الإسلامي تتحى كل هذا جانبيا، لأنها لا تقبل أن يفكر الآخرون لها أو ترى الأمور بعيون ميتة، ولأنها تؤمن أن للقرآن الكريم يحثها على الفكر، وعلى "ما أنزل الله" وليس إتباع الأبناء والأسلاف. فهؤلاء الأسلاف رغم ثقتهم وإخلاصهم – لم يرزقوا للكمال .

ولا تجد دعوة الإحياء الإسلامي حرجا في أن تعلن أن الفقهاء عندما أجمعوا على النسخ في القرآن وعلى تحديد القتل عقوبة للمرتد كانوا

(١) أنظر الحديث في زيادات غسان الاصطلاح على مقدمه ابن الصلاح للباقي تحقيق الدكتور عائشة عبد الرحمن (دار المعارف مصر) ص ٦٨٤ – والحديث أورده المصنف في مجمع الزوائد ١٧٠/١ وقال رواه الطبراني في الكبير ورجاله موثقون .

(٢) لا يتسع المجال للتفصيل وقد عولج الأمر في الجزء الثاني من كتاب "نحو فقه جديد" وهو المخصص للسنة فعلى من يريد التفصيل أن يعود إليه. وكذلك في كتابنا "الأصلان العظيمان. الكتب والسنة" .

يصدر عن روح عصرهم، والصناعة الفقهية التي وضعوها - ذلك لأنهم ليسوا معصومين، أما دعوى الإجماع فقد أكرها الشافعي وأحمد بن حنبل وغيرهما.

ولهذا فلا نجد دعوة الإحياء مشكلة مع التراث الفقهي لأنها إما أن تستبعد تماما، أو أن تستأنس به في بعض الحالات وفي جميع الحالات تضع فقها الخاص .

وستقدم هنا أمثلة توضح كيف أن هذا الفقه الجديد يحل للعديد من أزمات المجتمع الإسلامي التي اعتمدت على الفقه السلفي. فقد ميزنا بين العقيدة والشرعية، وهو تمييز أشار إليه للشيخ شلتوت رحمه الله في كتابه "الإسلام عقيدة وشرعية" ولكن الشيخ شلتوت لم يذهب بهذا التمييز إلى منتهاه، وإلى ما يستتبعه، الأمر الذي قلم به فقه الإحياء الإسلامي إذ وجد أن العقيدة لها هدف وآليات تختلف عن هدف وآليات الشرعية. فالعقيدة تتجه إلى القلب وتستهدف الإيمان وتستلهم للوحي ووسائلها قراءة القرآن وتبهره والقربات إلى الله تعالى .

بهذا الأساس لا يمكن للعقيدة أن تخرج بنفسها في خضم الدولة، أو السلطة. إن مجالها الوحيد هو الفرد، وقلبه وكل توجيهات القرآن الكريم العقيدية هي إلى الأفراد. وإذا جاوزت العقيدة هذا النطاق الطبيعي لها إلى الدولة، أو السلطات، أو حتى مثلث نفسها في مؤسسة خاصة بها فإنها ستوجد الدولة التكنولوجية التي لا تكون دولة للعقيدة ^(١) ولكن دولة الكهنوت، وهو أسوأ تشويه يمكن أن تصاب به العقيدة. بل ويقضى عليها كعقيدة .

إن هذا التكليف قد حل أكبر أزمة في مشكلة الحكم الإسلامي لأنه أبعد العقيدة عن مجال الحكم وحصرها في الأفراد، ولم يكن هذا تحكما لو هو ولكن بناء على طبيعة العقيدة .

(١) والمصطلح نفسه سقيم، فليس هناك دولة للعقيدة ولكن يمكن أن تقول أمة العقيدة .

أما الذى يدخل فى مجال الحكم فهو "الشريعة"، والشريعة هى عالم العلاقات الإنسانية: أصحاب الأعمال مع العمال، الحكام مع المحكومين، الأغنياء مع الفقراء، للرجال مع النساء الخ.. ففى هذه العلاقات يكون الهدف هو العدل وتكون الوسيلة هى القانون، ويكون الفيصل هو العقل وبهذا يصبح للدولة الإسلامية فى أحكامها طابعاً عقلائياً .

وإيمان الأفراد بالعقيدة يتفاعل تفاعلاً جديداً مع التنظيم العقلاسى للدولة. فتطبيق الدولة للشريعة نتيجة إيمان الأفراد وطلبهم يكفل لهذا التطبيق الصفة الديمقراطية، والطبيعة العقلانية للشريعة تحمى العقيدة من تسلل الخرافة .

وفى قضية الفنون والآداب والتعددية بصفة عامة فإن فقه الإحياء عاد بها إلى الإنسان لا إلى الإيمان واعتبرها من حرث الدنيا وثمره النفس الإنسانية بفجورها وتقواها. ومن ثم فلا تطبق عليها ضوابط العقيدة ولكن ضوابط الشريعة. على أن الاثنين – العقيدة والشريعة – تحتفظان بمساحة كبيرة من الحرية، حرية الفكر والاعتقاد والتجليات الإنسانية التى تتمثل فى الفنون والآداب، والعقيدة نفسها تنص على أن عطاء الله تعالى ليس محظوراً عن الذين يبتغون حرث الدنيا وأن حسابهم إنما يكون لله تعالى ليوم القيامة .

وبهذه الطريقة يمكن أن يوجد فى المجتمع الإسلامى صور عديدة من الفنون قد يستهدف بعضها إرواء الشهوات لأن هذا ما لم يستبعده القرآن من الإنسان وما ألهم الله النفس البشرية من فجور وتقوى ولا تحاسب هذه الفنون كما لو كانت نشاطاً إسلامياً، لأنها نشاط إنسانى يعود حسابه وعقابه إلى الله يوم القيامة، ما دام ليس هناك إجبار على ممارسة هذه الفنون أو مشاهدتها أو الاشتراك فيها بقوة أو بأمر السلطة .

أما قضية الاقتصاد ومشكلة الربا المعقدة، فإن دعوة الإحياء رأت بنظرة واحدة أن كلمة "ولا تظلمون" بضم التاء الأخيرة فى الآية (فإن تبتسم

فلکم رؤوس أموالکم لا تظلمون ولا تظلمون يتضمن اعترافا بأثر التضخم وأن تجاهله يؤدي إلى الحيف على الدائن وظلمه، والظلم كربه في الإسلام سواء كان للمدين أو الدائن، ومن ثم فليس هناك تحريم على أكثر أنواع الربا للتشاور في عصر يجعل التضخم أمرا لازما .

وتوصل الفقه الجديد إلى نظرية تلاقي الحقوق والواجبات بين العمال وأصحاب الأعمال التي تحسم شائفة تناقض المصالح والصراع الطبقي وتحوله إلى اختلاف حول قسمة العائد يحسمه العدل الإسلامي. كما لم تجد صعوبة في تفسير الآية ٢٨٢ من سورة البقرة تفسيرا يوجب ويقر الاتفاقيات الجماعية أو عقد العمل المشترك كما قد يطلق عليه في بعض الحالات وهو جوهر النقابية (١) .

وقد عزز الفقه الجديد قاعدة "إساءة استخدام الحق" وما تتطلبه من ضبط لأنها تحقق العدل، وهو الهدف الرئيسي للشريعة، قدر ما عزف عن "سد الذرائع" لأنها تخالف أسلوب المقاصد الذي وضعه القرآن الكريم "إن الحسنات يذهبن السيئات" كما تستبعد توجيهاته في التوبة والندم وغفران الله للذنوب .

* * *

هذا عرض سريع للطريقة التي توصلت بها دعوة الإحياء الإسلامي إلى أسسها، ووسيلة تعاملها مع هذه الأسس، وكيف أنها بذلك بددت الكثير من الشبهات وحلت الكثير من المشكلات التي أوجدتها تعقيدات الفكر السلفي والفقه التقليدي .

(٢) أنظر كتابنا الإسلام والحركة النقابية من ص ٨٢ إلى ص ٨٥ .

نزعة الماضوية تتناقض مع الإسلام

لما كانت نزعة الماضوية هي أبرز ما تنقسم به الدعوات الإسلامية المعاصرة، وأنها هي السمة المشتركة بينها جميعا. فقد رأينا أن نفرد لتفنيدها هذا الفصل الموجز لعله أن يشفى هذه الدعوات من داتها العضال، فمهما كان نبيل العاطفة التي تشد هذه الدعوات إلى الماضي المجيد، ونحو القرون الثلاثة التي ارتأت أنها أفضل القرون، ونحو الشخصيات النابهة، العظيمة، والمباركة بصحبة الرسول، فإن التحليل العميق لهذه النزعة يثبت أنها ليست من الإسلام، بل إنها تتناقض الإسلام .

وتناقضها مع الإسلام يتلّى من أمرين :

الأول: أن الإسلام يمثل المستقبلية في حين أن هذه النزعة تمثل الماضوية .

الثاني: أن الإسلام يمثل الموضوعية، وهذه النزعة تمثل الذاتية .

وفيما يلي تفصيل هذا الإجمال ..

المستقبلية والماضوية :

يغرس الفلاح البذور في الأرض نظرا للمستقبل الذي سيجعل هذه البذرة نباتات باسقة، وهو لا يتصور أنه سيكلل منها فوراً، كما أنه عندما غرسها في الأرض حرم نفسه لذة استهلاكها، ولو أنه استهلكها لكسب

الحاضر وخسر المستقبل، ولحصل على حمل جوال من "التقاوى" بينما كان من الممكن لو زرع هذه التقاوى أن توجد له أطنانا من المحاصيل .

ويوفر التاجر من أرباحه فلا ينفقها على ملذاته، ولكنه يدخرها ويعيد استثمارها ويحرم نفسه مما توفره من استمتاع لأنه يعمل للمستقبل.. لا للحاضر.

الإسلام كهذا الفلاح والتاجر، إنه يجعل الحياة الدنيا بأسرها مزرعة للآخرة، فهو ينظر للمستقبل إلى مدى أبعد مما يتصوره كل المستقبلين، لأنه يستخدم الحياة الدنيا بأسرها كقطرة للحياة الآخرة. بحيث تكون الحياة عملا ودأبا وكدحا وكفاحا ومجالا لأداء الصالحات واجتناب السيئات وهذا العمل والكفاح هو سمة كل الدعوات "المستقبلية" وتميز الإسلام هو أنه يجعل الحياة الدنيا بأسرها قطرة للمستقبل في حين أن الدعوات المستقبلية الأخرى تضع مدى محددا لو أن يسخر الأب حياته لمستقبل أبناؤه .

ففكرة العكوف على الماضي واستلهامه مخالفة تماما للإسلام لأنها تحول دون العمل والإبداع وأداء الصالحات وكبح الشهوات وتوجد بديلا عن هذا كله في التفرغ في هذا الماضي والإشادة به، أو تجعل للشحاذة منه عملا وحرقة، وهي في أعماقها مرض نفسى تبرر به النفس عجزها عن العمل، وسيادة السلبية عليها، والإسلام في مستقبلية لا ينظر إلى الماضي ولا يقس القبور، أو يعلى بنيانها، بل يطمس معالمها، وإذا كان قد سمح بزيارتها ففلاعتبار، وقد رأى أن التمسح بآركانها أو تصور أى قوة فيها نوع من الشرك والماضوية في حقيقتها "قبورية" ووثنية ..

الموضوعية والذاتية :

والجانب الثانى الذى تتناقى فيه الماضوية مع الإسلام. أن الإسلام موضوعى. أى أنه يمثل الفكر، والمبدأ، والقيم فى حين أن الماضوية تمثل

التراث، والأشخاص، والممارسات. وفي حين أطلق الإسلام على أتباعه اسم "المسلمين" أى الذين يؤمنون بالإسلام وقيمته الموضوعية فإن الماضوية جعلت أصحابها يحملون اسم "السلفية" وما السلفية إلا اتباع لسلف وطرائقهم ومذاهبهم وقد رفض الإسلام هذا وسمى أتباعه المسلمين أو المؤمنين ويتضح مدى الفرق في أن وسيلة الموضوعية هي الفكر، وأن وسيلة السلفية هي التقليد فالفرق بين الموضوعية والسلفية هو الفرق بين التفكير والتقليد، وقد يصور هذا الآيات العديدة التي تتدد بالذين إذا دعوا إلى ما أنزل الله (الموضوعية) قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا (السلفية) .

ولما كان الإسلام محكما في بنائه: كالجسد الواحد الذي يعمل كل عضو فيه لمصلحة الجسم كله دون أن تتناظر مهمة عضو مع مهمة بقية الأعضاء أو تعمل ما يسئ إلى الجسد بل تتلاقى كلها في العمل له. فإن عزوف الإسلام عن الماضوية يتلاقى مع نفوره من الذاتية ويجمع هذا وذلك في نهيه عن تقديس الأشخاص أو توثيق الأشياء أو اتباع الأبناء والأجداد. ومن دلائل ذلك تمجيده للمسجد وتثنيده بالقبور وأمره بالتفكير ونهيه عن التقليد، وبهذا يكون الإسلام بمسئليته وموضوعيته في واد والسلفية بماضويتها وذاتيتها في واد آخر .

وقد جعلنا هذا نفهم كيف أن الدعوات الإسلامية عندما تمسكت بالماضوية كأحد رموزها ومقدساتها، فإنها في الحقيقة كانت تؤمن بفكرة تناقض الإسلام ! وأن هذا من أكبر أسرار فشل هذه الدعوات وعجزها عن التعامل مع الواقع، ولو كانت الماضوية من الإسلام لكان يجب أن تقتصر ولو دعوة واحدة من هذه الدعوات .

والقرآن الكريم والسنة النبوية سواء في رفض الماضوية وسلفيتها وذاتيتها لأنهما معا يدعوان إلى المستقبلية والموضوعية .

وأى شئ أكثر حسما وقوة فى التشديد باتتباع الأباء والأجداد من هذه الآيات .

- «والذين إذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا أو لو كان آباءهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون». {البقرة ١٧٠}
- «قالوا حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا أو لو كان آباؤهم لا يعلمون شيئا ولا يهتدون». {المائدة ١٠٤}
- «قالوا اجئت لتلفتنا عما وجدنا عليه آباءنا». {٧٨ يونس}
- «ما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم». {٤٠ يونس}
- «لقد كنتم أنتم وآباؤكم فى ضلال مبين». {٥٤ الأنبياء}
- «إنا وجدنا آباءنا على أمة وأنا على آثارهم مهتدون». {٢٢ الزخرف}
- «انتهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا». {٦٢ هود}

وكل الآيات أو الأحاديث التى تشيد بأشخاص فإنما يكون هذا لأعمالهم وليس لأشخاصهم كما لا يضاف القرآن على أحد من المخلوقين عصمة أو توثيقا وقد خص الله تعالى رسله بوحيه وتوجيهه، ولهذا جاز للمؤمنين أن يكون الرسول أسوة لهم وهى صفة ليست لغيره، وعندما أمتدح الصحابة فإنه أمتدحهم لأنهم «أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعوا سجدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا» وختم الآية «وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجرا عظيما» وكل آيات المدح فى القرآن تنصب على «الذين آمنوا وعملوا الصالحات» ولم يعد الله تعالى العرب بورثة الأرض ولكن «الصالحين» ولم يعط للأنبياء من سلطة سوى التبليغ والبيان وحذرهم فى عبارات جازمة تجاوز هذا .

وقال الرسول "مثل امتي مثل المطر لا يدرى أوله خير أم آخره" بيل
لقد فضل الرسول ﷺ الذين آمنوا ولم يرووه، وأورد الإمام أحمد بن حنبل في
مسنده عدداً من الأحاديث بهذا المعنى منها :

• عن أبي محييز قال قلت لأبي جمعة رجل من الصحابة رضى الله
عنه حدثنا حديثاً سمعته من رسول الله ﷺ قال نعم أحدثكم حديثاً جيداً،
تغدينا مع رسول ﷺ ومعنا أبو عبيده بن الجراح فقال يا رسول هل أحد
خير منا ؟ أسلمنا معك وجاهدنا معك قال نعم قوم يكونون من بعثكم
يؤمنون بى ولم يرونى .

• وعن أنس بن مالك رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ وحدث
أنى لقيت إخوانى فقال أصحاب النبى ﷺ نحن إخوانك. قال لئن
أصحابى، ولكن إخوانى الذين آمنوا بى ولم يرونى .

• وعن أبى إمامة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ طوبى لمن
آمن بى ورأى مرة وطوبى لمن آمن بى ولم يرونى سبع مرات (١) .

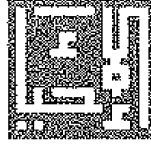
وهذا يدل على أن الإخلاف قد يكونون أفضل من الأسلاف وإن
الذين لم يشاهدوا النبى وآمنوا به أفضل من الذين شاهدوه وآمنوا به .

فإذا قيل إن الرسول قال عن أصحابه "والذى نفس محمد بيده لو أن
أحداً اتفق مثل أحد ذهباً ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه". فإن ذلك إنما كان لأن
كفاحهم مع الرسول أدى لظهور ونجاح الإسلام، وهو - فى النهاية - يصب
فى تيار المستقبلية والموضوعية .

(١) أنظر الفتوح الربانى فى ترتيب مسند الإمام أحمد بن حنبل الشيبانى للشيخ الوالد رحمه الله ج ١ ص ١٠٥ -
١٠٧ وقد أورد البخارى فى خلق أفعال العباد رواية عن أبى جمعة بالمعنى نفسه .

فهرس

٣	مقدمة ..
٦	الفصل الأول : توحيد الله يستتبع التعددية فيما عداه ...
	الفصل الثاني : إشارات القرآن إلى التعددية .
١٢	قواعد التعددية في القرآن .
٢١	الفصل الثالث : تقرير تعددية الأديان ..
٢١	السبب التاريخي .
٢٥	السبب الموضوعي .
	الفصل الرابع : الحكمة .
٤٠	أصل مسكوت عنه من أصول الإسلام
	يقرر الانفتاح والتعددية ...
٤٢	ماذا تعنيه الحكمة .
٤٥	لماذا ذكر القرآن الحكمة جنبا إلى جنب الكتاب .
٤٨	الفصل الخامس : التعددية في مجتمع إسلامي ..
٤٩	قضية الاختلاف والائتلاف .
٥٦	هداية الأنبياء .
٥٦	غواية الشياطين .
٦٦	الفصل السادس : آليات ضبط التعددية
٦٧	توفر درجة من الوعي السليم للإسلام .
٦٩	الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .
٧٦	مقتضيات التعددية في المجتمع الإسلامي .
	ملحق عن دعوة الإحياء الإسلامي :
١	١. فكر وفقه دعوة الإحياء .
ك	٢. نزعة الماضوية تتناقض مع الإسلام .



التعددية

في مجتمع إسلامي

توهم كثير من الناس أن الأمة الإسلامية لما كانت أمة التوحيد، فإن هذا يفترض الأحادية في النظم، بمعنى أن يكون هناك رئيس واحد، ونظام واحد، وحزب واحد، وصحافة واحدة الخ ..

ويذهب هذا الكتاب عكس ذلك تماماً ويوضح أن توحيد الله تعالى يستتبع التعددية فيما عداه. فالتوحيد مقصود به الله وحده، ومد معني الواحدية علي غيره يمكن أن يكون نوعاً من الشرك، ويستشهد علي ذلك بعدد كبير من الآيات القرآنية التي تقرر التعددية وتتقبل الاجتهادات داخل الإطار الفسيح. بل إن انفتاح القرآن وصل إلي درجة الاعتراف بكل الأديان، وبكل الرسل وخص الله تعالى نفسه بالفصل فيما فيه يشتجرون ..

وتحت عنوان «الحكمة: أصل مسكوت عنه من أصول الإسلام يقرر الانفتاح والتعددية» يوجه الكتاب الانتباه إلي أن القرآن يدعو إلي «الكتاب والحكمة» ويفند ما ذهب إليه الشافعي من أن الحكمة هي السنة لأن القرآن يوردها في كثير من الآيات بما ينافي هذا المعني فضلاً عن أن السنة نفسها تدعو إلي الحكمة وتعتبرها ضالة المؤمن، وأن تقرير القرآن للحكمة أصلاً من أصول الإسلام يوجب استلزام النافع والمفيد من كل الثقافات والحضارات كائنة ما كانت وأن المسلم يكون أحق بها.

وفي فصل خاص يعرض الكتاب تصوره عن «التعددية في مجتمع إسلامي» فيشير إلي مبدأ رئيسي في الإسلام هو قبول الاختلاف وأنه لا يثير عداوة أو حساسية لأنه مما لا مناص عنه، ولأن الله تعالى خص نفسه بالفصل فيه يوم القيامة وأن الاختلاف غير الخلاف. فالاختلاف يوجب التعددية ولكن الخلاف يؤدي إلي الواحدية ثم ينتقل إلي العاملين الرئيسيين في المجتمع الإسلامي إلا وهما هداية الأنبياء وغواية الشياطين.

وفي الفصل الأخير ضوابط التعددية يتحدث الكتاب عن أنه وإن كانت من ناحية المبدأ ليست في حاجة لأليات تضبطها، لأنها - كالحرية - تضبط نفسها، إلا أن التجربة تثبت ضرورة وجود هذه الآليات التي تضع «قوا» وتكفل لها الاستمرار وتحول دون الانحراف. ويعرض الكتاب في هذا ضرورة توفر حد أدنى من الفهم الإسلامي الرشيد الذي يرفض التعصب كما يعرض «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر» وهو يعالج هذا المبدأ معالجة تفصيلية ويقارن ما بين الآيات المتعددة في القرآن وبين حديث منكم منكر الخ .. المشهور ويوجب ضبط الحديث بالقرآن بحيث ينحصر بالبند علي الحالات العاجلة التي تؤدي السلبية فيها إلي وقوع جريمة المفهوم التقليدي للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ويورد رأياً للإمام حسن البنا أبدأ عندما حطمت مجموعة من «مصر الفتاة» بعض الحاد

٢

Bibliotheca Alexandrina



0469324

2
115

دار الفكر الإسلامي

التمن ٥ جسيهات

To: www.al-mostafa.com